دكاكين تغلق أبوابها

كمال رحيم

رواية

دار العين للنشر

فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

دكاكين تغلق أبوابها

كمال رحيم

عن الرواية..

يواصل كمال رحيم رحلته الفنية فى اعماق الريف المصري هذه الرواية يصور القرية المصرية مبنى ومعنى، فهي تقدم للأجيال الجديدة صورة للقرية المصرية التي لم يروها ثم تغوص فى اعماق نفوس اهلها فى ذلك الوقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ خاص

إلى الدكتور مُحمَّد علي سَلامَة..

الرَّجُلِ الصَّالِحِ والأخِ والصَّدِيق..

على رُوحِهِ السَّلام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى

مَا الحُـــــبُّ إِلَّا لِلْحَـــــبِيبِ الأَوَّلِ

كَـمْ مَنْــزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُـهُ الفَتَى

وَحَنِــيـــنُهُ أبَـــــدًا لأَوَّلِ مَـــنْـــزِلِ

أبـو تـمَّـام

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

1

أوائل السبعينيات والنقود التي في أيدينا لا يزال لها معنى..

فالورقة المالية الصغيرة ذات الخمسة والعشـرين قرشًا عُملة لا يُستهان بها؛ خصوصًا لولدٍ مثلي ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة.

تدسُّها لي أُمِّي في جيبي خلسةً من وراء أبي، فهو وإن كان ميسورًا فإنه يرى أن عشـرة قروش فقط في اليوم هي الأنسب لي، لا يكفُّ أبدًا عن إسداء هذه النصيحة لأُمي، وهي تُجاريه ومن ورائه تعطيني هو هو المبلغ.

أقف بعدها متحيرًا أمام البيت؛ ففي أي دكان بالضبط أبدِّد هذا المصروف المحترم!

من التجارب السابقة أُنحِّي من رأسي على الفور دكاكين أهل بلدتنا، أقصد الأصليين منهم أبًا عن جَدّ.

لا أجد متعةً في التعامل معهم..

دكاكين نمطُها قديم، من منتصف الأربعينيات وهي على هذا الشكل، وكما لو أنها مصابة بالجرب؛ الواجهة زالت عنها قشـرة البياض وبانت منها بطانة الطلاء، بل ومن هذه الدكاكين ما هو بطوبٍ نيِّئ والدهان لطسة طين مخلوط بالقش، هيئة والعياذ باللـه (لا تسرُّ عدوّ ولا حبيب)..!

ولا ترتيب على الأرفف..!

الأصناف فوق بعضها البعض، حتى إن الباعة يبذلون جهدًا وتكاد تشفق عليهم وهم يعافرون للوصول إلى علبة سردين طلبها أحد الزبائن مثلًا، في النهاية ينجحون، يعثرون عليها بين بواكي الشاي، خلف علب المعسِّل، أو محشورة بين صفائح الزيت أو الجاز، ولا ذوق ولا كياسة، يقدمونها دون كلمة اعتذار عن العَطَلة التي سببوها لك والغبار الذي خرج معها وطاح في وجهك.

ولا بضائع ولا أشياء تجذب مَن هم في سنِّي، فما بالك بمن هم أصغر..

كلها سلع استراتيـجـيَّة..

سكر، شاي، عدس، زيت، صابون، وهلُمَّ جرًّا مما يُعتبر من تموين البيت واهتمامات الأمهات، والباعة الظلام على وجوههم ولا تفهم من النَّكَد والكآبة التي فيها الواحد منهم إن كان اللـه خلقه على هذا النحو، أم يعاني من

مشاكل في حياته وفي حالة جهوزيَّة للشجار معك أنت وأهلك وكل مَنْ يتصدى لك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تورطتُ مرةً مع واحدٍ منهم اسمه الحاج (عبد الراضي)..

وإن كان لم يؤدِّ فريضة الحج من قبل، أهل البلدة تفضَّلوا عليه بهذا اللقب لكِبَر سِنِّه والعمامة التي تعلو رأسه، وفي أيام الزَّمتة والحَـرِّ الشديد كان هذا المحترم يتحرر من الجلباب ويقف لنا في دُكَّانه بصديري وسروال طويل معقود حول خصره بحبل، والعمامة طبعًا، وأسفل منها شيء أشبه باللِّحْية فلم يكرمه اللـه سوى بزغَبٍ خفيفٍ تناثر على وجنتيه وأسفل الذقن، ودائمًا أبدًا خلف أذنه اليُسرى سيجارة جاهزة للاشتعال في أيَّة لحظة.

المهم أنه جرى يومًا على ألسنة الصغار أمثالي أن عمَّنا الحاج هذا ما شاء اللـه الآن! تطور وجلب لنا من البندر عدة صناديق مياه غازيَّة، بيبسـي، كوكاكولا، أسباتس، وتُوفِـي وكراملَّة وساعات بلاستك صغيرة تضيء في الظلام، ساعات فالصو الساعة منها لا يزيد ثمنها على خمسين قرشًا، وبسكوت مَحشوّ بالعجوة ولبان كان مشهورًا أيامها باسم (إيكا)..

قلت أجرَّب، توجهتُ إليه وسألته عن قطعة كراملَّة وزجاجة بيبسي، فأشار لي بإصبعه:

- الفلوس الأول، وتحطها هنا قُدَّامي فوق البنك[1].

أذعنتُ ووضعتها حيث قال، ولمَّا تأكد أنها بالضبط سلَّمني المطلوب:

- آدي الكراملَّة أهيَّه والبيبسي عندك جنب الباب.

أتحسس الزجاجة فأجدها ساخنةً تلسعُ من لَفْح الحَـرِّ والرَّكْنة في الشمس، وحبَّة الكراملَّة ساحت والتصقت بالغلاف الملفوفة به ولا تريد أن تخرج، وإن صمَّمتُ على أكلها فلا محالة من أن آكلها هي والغلاف معًا؛ فشعرت بالغبن وسألته إرجاع نقودي: لا أريد الشراء منك أيها العَمّ..

- مفيش ترجيع، والقرش اللي يدخل الدُّكان مبيطلعش تاني.

- مفيش ترجيع! اللـه يسامحك يا عمّ عبد الراضي..

وهو يرمقني بنصف عين وكأني أتـمَسْكَن وألعب عليه، ومددتُ له يدي بالزجاجة:

- طَبْ حتى إدِّيني مفتاح أفتحها بيه.

- مفتاح! يا صلاة النبي..

وتمتم بسخريةٍ منَّا نحن العيال المُرفَّهة التي تعجز عن فتح الزجاجات والعُلَب بأسنانها، وشدَّها من يدي:

- هات هات..

وطفق يعالج الغطاء بأضراسه محاولًا فتحها ونُثار لُعابه يسيل حول الفوَّهة، فشعرت بالغثيان منه ومن الزجاجة وأكاد أتقيَّأ، وعندما استجاب له الغطاء فارَ سائل الكولا واندفع إلى أعلى كاسحًا وجهه فابتسم، أما أنا فلم أبتسم، وقلتُ له وأنا أطرق بيدي على حافَّة البنك بغضب:

- مش عايزها..

- إنت حُرّ..

وشربها هو كما بدأ يمضغ قطعة الكراملة بأسنانه هي والورقة التي تغطيها، وأنا أرمقُه بضجرٍ وأعاود الإلحاح طالبًا نقودي، لم يعبأ، تركني متجهًا بعينيه نحو زبونةٍ جديدةٍ أقبلت عليه، عجوز سِنُّها من سِنِّه، وفجأةً تشاجرا؛ والسبب مُكْحِلة اشترتها منه بالأمس واكتشفت أن بها ثقبًا والكحل يتسرب، تناوشا أول الأمر، كلمة منها وكلمة منه والشتائم خفيفة ثم انهال التشويح والرَّدْح.

امرأة يا سلام عليها!

مخضرمة ومتمكنة في الدفاع عن النَّفْس، رمت المكحلة في وجهه وهددته بأنها سوف تُعرِّي رأسها وتبدأ في (الصُّوات) ولمِّ الشارع عليه؛ فخاف منها هذا الشرفنطح ورد لها ثمن المكحلة..

تنشط فيَّ أنا الآخر غريزة الدفاع عن النَّفْس وأتشجع مقتديًا بها، شببتُ على أصابع قدميَّ وناديتُ عليه:

- يا عمّ.. يا عمّ..

كان قد فرغ لتوِّه من شجاره مع العجوز، فأجابني بانفعال:

- نعم يا سيدي عايز إيه إنت راخر؟!

فارتفع صوتي إلى أقصى درجة مُكمِّلًا عليه:

- انعل أبوك ابن كلب..

وجريتُ..

نكّدتُ عليه مثلما نكّد عليَّ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا.. لا.. دكاكين الأغراب شيءٌ آخر..

ترتيب ونظافة وفوقهما لُطف وكياسة وشطارة، والزبون ينصرف مرتاحًا لا مُحبَطًا كارهًا هؤلاء الباعة الذين لا يفرقون كثيرًا عن الكباش النَّطّاحة، هكذا كانت انطباعاتي في ذلك الوقت..

دكان عمّ (زكريا) مثلًا والذي كان على مقربةٍ من بيتنا، الدنيا كلها عنده والزحام والحركة، وصورة من الصور الدعائية لفيلم (غَزَل البنات) ملصقة بضلفة الباب من الداخل للعُندُورة ليلى مراد وهي تتدلَّل على نجيب الريحاني وتحاول إغواءَه، ودكان (الورداني) هناك بغرب البلدة، الابتسامة لا تفارق وجهه وقبل أن أدَعَهُ كان يهديني حبَّة نَعْناع أو ملبّس أظل ألوكها بلساني إلى أن أعود إلى البيت؛ ودكان ثالث صاحبه اسمه (مشالي)، شاربه ذوائبه صفراء والأطراف مرفوعة إلى أعلى، كنت أحسبه يونانيًّا، المريلة التي فوق جلبابه هي التي أوحت إليَّ بذلك؛ فلا أحد من بقَّالي بلدتنا كان يرتدي مريلةً فوق الهدوم، عيب! هل هو امرأة! اتضح فيما بعد أن مشالي هذا أصوله تعود إلى كوم الشقافة بالإسكندرية.

ولربما الحوارات التي كانت تجري في حوش بيتنا أحيانًا هي أحد أسباب انتباهي لهؤلاء الأغراب الذين يعيشون بيننا، وللفضول الذي دفعني إلى التعلّق بهم ومصادقة أولادهم، فأحيانًا كنت أسمع خادمتنا (نعمات) تقول لأمي:

- الأغراب يا حاجَّة مَلُوا البلد.

وتُشلشِل بذراعها:

- شفطوا خير البلد، شفطونا شفط.

وأمي بنبرتها الهادئة:

- بس حاجتهم حلوه.

أو تنفعل أمي وهي العاقلة الرزينة، تميل على عودٍ مُلقًى على الأرض مهدِّدةً نعمات:

- جايبة القرف دا منين يا بت؟، دا الرُّز كله سوس.

- من الحاج عبد الراضي.

- وهو لسَّه فيه حدّ بيشتري منه حاجة الراجل ده.

وتتمتم بصوتٍ خافت: اللـه يخيِّبك يا عبد الراضي، جاك (كُبَّة) يا بعيد.

ويعلو صوتُها مكلِّمةً نفسها:

- بس الغلط غلطنا! إحنا اللي رُحنالك برجلينا يا عبد الراضي..

والمغفَّلة نعمات تبرر:

- وأنا أعمل إيه، ما زكريا كان قافل.

- كُتِّي خطفتي رجلك لحدّ مشالي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

عدلي وفهيم أيضًا كانا غريبين عن البلدة..

غير أنهما لم يجيئا إلينا إلا من قريب، من سبعة أو ثمانية أشهر، فهما ليسا كمشالي والورداني وزكريا أو حتى الدريني، هؤلاء استوطنوا بلدتنا منذ زمن طويل.

وكانا متخصصين في بيع ثمار البلح (الإبريمي) بالذات، ومرتين أو ثلاثة من قبل ترسلني أمي لشراء عدة أقداح منهما، وعند عودتي كنت أتذوق ثمرتين أو ثلاثة من الكيس الذي بيدي وأستسيغها، وبالتدريج أصبح مذاقها في فمي يفوق مذاق الكراملّة وكل الحلوى التي تُباع عند عمّ زكريا ذاته، أما بخصوص اليوم الذي أتكلم عنه والذي أخذتُ فيه مصروفي من أُمِّي ووقفت حائرًا، لم تَطُلْ حَيْرتي، قلت: أذهب وأشتري لنفسي منهما هذه المرة.

دكانهما قريب من (الموقف) حيث الزحام ونقطة البوليس والجمعية الزراعية والبنايات المهمة، ولم يكُنْ صغيرًا وأشبه بالـحُـقِّ كسائر دكاكين بلدتنا، واسع براح أربعة أمتار في خمسة على الأقل، حجمه بحجم (المَنادِر) التي في بيوتنا، وله بابٌ عريضٌ بأربع (ضلفات) تصعدُ إليه بدَرَج من ثلاث سُلَّمات، وقُفَف مملوءة بثمار البلح الجاف وعلى شنكل مدقوق بالحائط المغرفة الحديد التي يكيلان بها؛ إذ كانا أشبه بتجار الجملة وبضاعتهما ليست مقصورة على بلدتنا فقط، بل يوزِّدانها للقرى والعِزَب المجاورة، لكن لا مانع من البيع بالقطّاعي ولو بقرش أو بقرشين، كانا ناصحين ويعرفان قدر المِلّيم.

وأنا أقف بين المبتاعين وعيناي على أي شيء يتحرك: المَغْرفَة الحديد كلما سُحبت من فوق الشنكل وغاصت في قُفة من قُفَف البلح، قطة أقبلت علينا من الخارج، امرأتان تتأهبان للشجار على أسبقية الدور، إلى أن مالت عيناي صوب حائط باليسار، وحطّت على صورةٍ كبيرةٍ لأُمِّنا مريم تحمل وليدها وملائكة صغار تسبح في السماء وتحوم حولهما.

غالبًا ما نكون نحن المبتاعين خمسة أو ستة وإما عيالًا أو نسوة، والمعلم عدلي هو مَن يقف خلف البنك يتسلم النقود ويتفاهم معنا، وبالداخل أخوه الشقيق المعلم فهيم جلبابه مشمور عند أعلى الفخذين، وهذا الجزء المشمور ملفوفٌ ويخرج من فتحةٍ بالجلباب، ويكيل لنا البضاعة إما في قراطيس لأمثالي أو في سلاطين أو أكياس ورقية، أو نُفاجأ بقدوم أناسٍ ليسوا من بلدتنا، كنا نعرفهم من طواقيهم المكبوسة فوق الرءوس، والمعلم عدلي يلقاهم بحفاوة ويرفع لهم طاولة البنك ليمروا من خلالها إلى الداخل،

يسحب كلّ منهم (حَوَايَة) من سيَّالته أو ربما تكون جاهزةٍ في يده من قبل، يسوِّيها فوق رأسه بعدة ضغطات من أصابعه ويهبط حاملًا قفَّة بلح بأكملها ويخرج، وعربة كارُّو تنتظرهم في الخارج أو عدة حَمِير كلٌّ منها يعلوه خُرْجٌ يتدلى على جانبيه..

والمعلم عدلي يلحق بهم مودِّعًا:

- سلمولي على الحاج زيادة.

يُومئون برءُوسهم بأنهم سوف يفعلون، ويتردد هو لحظةً ثم يقول:

- بس قولوا للحاج إنه غلبني المرة دي والسعر بعد كده هيزيد.

فيشيحُ أحدُهم في وجهه:

- وهو انتوا حدّ في الدنيا دي كلها يعرف يغلبكم.

ويجذب هذا الذي تكلم طرف لجام الحِمار أو البغل الذي يجرُّ الكارُّو مع سأسأةٍ بالفم كي يتحرك..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يلمحني المعلم عدلي وأنا أضع يدي على حافة البنك وأنتظر..

تتلقاني عيناه لا بنظرة مودَّة مع صغيرٍ يشتري، لا. لا. شيء أكبر، نظرة تقدير واهتمام إكرامًا لأبي، رجل من الأعيان وله مهابة في البلدة والأهم أنه كثيرًا ما وقف بجواره هو وأخيه كلما جار عليهما أحد، فأقدامهما لم تترسخ بعدُ في البلدة وفي أمسِّ الحاجة إلى دعم ومساندة حتى يلتحما بالناس ويصيرا منَّا.

ويثور اللَّغَط والاستعجال من المبتاعين فينحِّي المعلم عدلي وجهه عني متجهًا إليهم، وتجذبني أنا صغائر الأشياء التي أراها أو ربما بالعمد كنت أتسقَّط أخبار هذا الدكان الجديد بعد أن سمعتُ الكثير عنه وعن صاحبيه، وللحظاتٍ تروح عيناي إلى ساقَي المعلم فهيم العاريتين وأقارنهما بساقَي أبي عندما يخلع جلبابه، الفرق واضح: ساقا أبي كانتا مستقيمتين وليس بهما أي اعوجاج كحال المعلم فهيم، وكنت أراقب هذا الفهيم وهو يميل برأسه ماسحًا بكُمِّ جلبابه حبَّات العرق التي تناثرت بفظاعة على جبينه ووجنتيه، وبعضها يصل إلى شفتيه فيبدو عليه التأفُّف من طعمها وملوحتها، والبعض الآخر يسقط على حبَّات الثمار التي يكيلها فأشعر بالضيق وأخشى أن تكون من نصيبي عندما أشتري.

لا أعرف لماذا كنت أتناول هذا الرجل بالانتقاد كلما رأيته وتُجري عيناي مقارناتٍ بينه وبين الآخرين، ربما لأنه كان عابسًا طوال الوقت ورائحته ليست طيبة؛ قياسًا على أخيه عدلي المهندم اللطيف صاحب اللسان الحلو والخاتم (أبو فصّ) أزرق الذي يطوّق إصبعه الصغيرة.

أو لعلِّي كنت في سِنٍّ حرجة، ما بين الصبيّ والمراهق، سِنّ اليقظة والدهشة وغُدَد وهرمونات الاستفهام والتساؤل التي بدأت تنشط، فما أراه لم يعُد يمرَّ عليَّ مرور الكرام، أصبحتُ ألاحظ وأقارن وأرتِّب المقدمة فوق المقدمة لأصلَ إلى نتيجة، محاولات وإرهاصات لعقلٍ أخذ ينمو كلَّ يومٍ عن اليوم الذي سبق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأرنو من جديدٍ إلى الصورة التي تزيِّن الجدار..

إحساسٌ بداخلي يتلقاها بالتوقير اللازم، الفطرة هي من ولَّدت عندي هذا الإحساس ثم أمي بعد ذلك، فعندما سألتُها من قبل عن صورةٍ مشابهةٍ ربَّتت على صدري قائلةً: إنها لسِتِّنا مريم والصغير سيدنا عيسى..

لم يكن سؤالي هذا من وقتٍ قريبٍ لليوم الذي أنا فيه الآن، ولا كان عدلي وفهيم قد ظهرا على خريطة بلدتنا، كان هذا من سنوات فاتت، غير أن إجابتها ظلت ماثلةً في رأسي إلى الحين، وبعد الكثير من الفضول والاستفسارات مني أوجزَتْ لي الأمر في كلمتين: محمد وعيسى إخوة، وفهمت أنا كلامها في ذلك الوقت البعيد بمعناه الحرفي وليس بالمجاز الذي تقصده؛ إذ كنت في الثامنة تقريبًا أو حتى أصغر من ذلك، وقلت وحدقتا عينيَّ تتسعان من الدهشة:

- إخوات!

- عليك نور، إخوات..

وهَا أنَا الآن أُعاود النظر إلى الصورة، وفي أُذني الحوار الذي دار بيني وبين أمي..

ثم يدفعني التَّنَزق بعدها إلى لمس كوب الشاي الذي يعلو طاولة البنك، فما زلتُ عيِّلًا فضلًا عن أن الفضول هو أحد صفاتي إن لم يكن أهمها، كنتُ أحسبهُ ساخنًا فلمسته بإصبعي لمسةً خاطفة، خيَّب ظنِّي كان باردًا وفي الوقت ذاته عافته نفسي بعد أن سقطت فيه هاموشة صغيرة وتجاهد للصعود على حوافِّه الداخلية، ويلحظ المعلم عدلي تقزُّزي فيُزيح الكوب جانبًا وكما لو أنه شعر ببعض الحرج، ويبدو أنه لمح نظرتي السابقة للصورة فسألني:

- عارف مين دُول؟

وبنظرةٍ ماكرةٍ بعض الشيء وعيناه في عينيَّ:

- وِحْشين! مش كده؟

- لأ. حلوين.

وأُضيف بحماس:

- والولد الصغير دا قريبنا، أخو سيدنا مُحمَّد.

في هذه اللحظات وأنا أتكلم كنت أعرف أنهما أخَوان مجازًا وليس بالمعنى الحرفيّ، كبرتُ بعض الشيء وأصبحتُ أعي، ويبدو أن هذه الإجابة أراحته؛ إذ ربَّت على رأسي بامتنان:

- ربنا يفتح عليك..

قالها مثلما كان يقولها لي الشيخ سطوحي أبو كفّ شيخ الكُتَّاب عندما أتلو عليه محصول القرآن الذي كلَّفني به دون غلطةٍ واحدة، وعندما كبُرتُ في السنّ وبدأت أستوعب أصبحت أعذر المعلم عدلي على هذه الأسئلة التي كان يسألها لي ولغيري من الصِّغَار، ففي أول حياتهما معنا كان هو وأخوه يتوهَّمان أنهما في مأساةٍ أو على الأقل الدنيا بالنسبة إليهما ليست مريحة؛ إذ كانا في داخلهما يعانيان من غربتين؛ غربة المكان وغربة الدين، لا شكَّ في أنهما تعرضا لبعض المضايقات غير أنها لم تكن بالقدر الذي تحسَّبا منه، ومن لا شيءٍ، ورويدًا رويدًا بالطبع، صارت لهما صحبة ومعارف إلى أن حدث ما حدث وأُهينا إهانةً بالغة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يفرَغ المعلم عدلي ممَّن حوله ويسألني عمَّا أريد فأقول له، وأمدُّ يدي بالورقة النقدية التي معي وهو يتمنَّع:

- ماتخلِّي يا سي علي..

يُردِّدها عدَّة مرات دون أن يقصدها، ربما لأقولها لأبي عندما أعود، وتكون سيّالته قد ابتلعت الفلوس وسلَّمني باقي الحساب، ولسانه ما زال مستمرًّا في هذا السخاء الكاذب!

والمعلم فهيم أُذُناه معنا، وبعد أن فرغ من تكييل الإبريمي يقبض على القرطاس بيدٍ وبيده الأخرى ثلاث حبَّات زائدة هديةً منه لي، هذا ما كان يقوله لي وبصوتٍ مرتفعٍ وأنا فاهم أنه يلعب عليَّ هو الآخر، وأدَعُ المكان وعندما

أصلُ إلى البيت أكون قد أنهيتُ على أغلب ما في القرطاس، فما الذي أفعلَه مع خادمتنا نعمات غير ذلك! كنتُ أحتاطُ منها؛ فهذه المقروصة لا ترحم تقاسمُني في كلِّ شيءٍ بيدي..

لم يتبقَّ سوى أربع حبَّات، بالهناء والشفاء لها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

ليلة أو ليلتان ويهلُّ شهر رمضان، وأمي تؤكِّد عليَّ:

- وتوصِّي فهيم، تقولُّه الطلبات دي لبيت الحاج سلامة.

أقول لها: إن المعلم عدلي هو الذي يبيع وليس فهيم.

- عدلي دا إيه! فهيم هو اللي بيكيِّل وعارف الحاجة الحلوة من الحاجة الوحشة، وكمان عنده ضمير.

وتُشيح مكلِّمةً نفسها:

- على مابَسْمَع..

وأنا غير مقتنع بما تقول وفي ظني أن المعلم عدلي هو الكل في الكل، ما علينا، خبرتها قليلة ولتعتقد ما تعتقد!

وأستمرُّ في الجدال:

- بس هُمَا معندهمش الحاجات دي، كل اللي في الدكان بلح وبس.

- عندهم يا فالح، أبوك قالِّي إنهم جابوا بضاعة رمضان؛ مشمش وبندق ولوز وقمر الدين، ولمَّا (البرنس) يقوم من النوم خلِّيه يشتري منهم كل اللي إنتي عايزاه.

أنا اسمي (عليّ) في شهادة الميلاد وفي الشارع والمدرسة والبيت وكل مطرَح، و(البرنس) هو الاسم الكودي الذي يناديني به أبي – وبقصد السخرية طبعًا – عندما أفعل ما على هواي أنا وليس الذي على هواه.

وتسلمني أمي كشفًا بالمطلوب ومعه عشـرة جنيهات وقُبلة على جبيني كي أُنجزَ هذا الأمر حالًا، ويتصادف أن اليوم الذي كنا فيه يوم أحَد والدُّكَّان مغلق، وعندما استعلمتُ من أحد الواقفين ردَّ عليَّ باستخفاف:

- عدلي!

قالها من أنفه، وأشاح في وجهي:

- معرفش حاجة عن الأشكال دي، فاتحين ولَّا قافلين ولَّا في أنهي داهية! اللـه أعلم بحالهم..

وعندما اكتشف أني ابن الحاج سلامة تعامل معي بلَطف، وشدَّد عليَّ بأن أبلغ تحياته لأبي، وتركته وصوته يلاحقني:

- قولُّه رزق بيسلم عليك، رزق أخو الشيخ سطوحي شيخ الكُتَّاب اللي في ريحكم.

أنا الغلطان! كان يجب أن أفهم ذلك من البداية وأبتعد عنه، فغلظته هي غلظة الشيخ سطوحي وكذلك السِّحْنَة واللِّحْيَة والتكشيرة، أسعفتني عجوزٌ تجلس بمشتَّة خُضار في الشارع، وصفت لي بيت عدلي وفهيم بالضبط، وفوق ذلك أهدتني ثمَرَة خيار أتسلَّى بأكلها وأنا في الطريق..

وحارةٌ في حارة وعدة طَرْقات على الباب إلى أن جاءني صوتٌ لا هو صوت رجل ولا صوت امرأة، فكما لو أن ضفدعة هي التي تردُّ عليَّ من الداخل، وأشعر بيدٍ ترفع السُّقاطة وتوارب الباب قليلًا وعينان تعلوهما طرحة معصَّبة على الجبهة ترمقانني بحذرٍ، وصاحبتهما تسألني بغضب: مَن أكون؟ وما الذي أريده منهم؟

أقول لها: أنا ابن الشيخ سلامة.

فأُفاجأ بها تغلق الباب في وجهي ويغيب صوتُها قرابة دقيقة، ثم سعلة تسبق الإجابة:

- بتقول شيخ مين؟

رغم حداثة سِنِّي فهمتُ أنها سمعت الاسم وتتداول مع نفسها عمَّا إذا كانت تسمح لي بالدخول أم لا، وجاء في ذهني أن هذه العجوز ليست سهلة ولا ترحب بقدومي، فقد سمعتُ صوت برطمتها وكما لو أنها تتحرك مبتعدةً عن الباب وتتركني أعوي في الخارج..

آه يا ملعونة!

وبرِدَّةِ فعلٍ غاضبةٍ عاودتُ الطَّرقَ من جديد، ولكن بعنف هذه المرَّة، عسى أن ينتبه أهل هذا البيت ويأخذوها من أمامي، الحمد للـه لم تَطُل المسألة، يدٌ أخرى فتحت لي الباب عن آخره وتقول لها وبما يشبه اللوم:

- الشيخ سلامة يا خالة، يعني منتِش عارفاه! وهو كل واحد جاي يخبَّط علينا تعملي فيه كده..!

وتلقَّتني صاحبة هذه اليد بابتسامة..

وكنتُ قد ابتعت جريدة الأهرام لأبي كالعادة، وعندما لمحتها في يدي منحتني ابتسامةً جديدةً وأخذتني إلى الداخل وهذه الخالة لا هي مرتاحة لدخولي ولا أنا مرتاح لها وكُلٌّ منَّا يتفحَّصُ الآخر، ولاحظت أنها عرجاء وتتكفَّأ في السير خلفنا..

الخالة هي جَدَّة المعلم عدلي، أبوه وأُمُّه ماتا وهي التي بقيت، وعجوز بمعنى الكلمة؛ الوجه ممصوص وجلباب أسود غطيس مفرود عليها كما الجوال، والأذنان شَحْمتاهُما مشقوقتان حتى آخرهما ويتدلَّى منهما قُرْط من الصفيح، ولا عينان تقريبًا، زُراران كالزراير الموجودة في عروة أي صديري أو جلباب وحولهما كرمشة وتجاعيد، وتتعجَّب من أنها تراك بهما مثلما تراها أنت!

أما الغزالة التي أنقذتني منها فهي ريحانة زوج عدلي، وفي الحلاوة والطَّعَامة تفوز على أية امرأةٍ في بلدتنا بالضربة القاضية، والجلباب بنصف كُمّ وفرحانَ يضحك ويكشف بِزّ الرِّجل كنسوتنا، وهي نفسها الزَّمَة الخفيفة التي يزمُمْنها عند فتحة الصدر، وصليب بحجم النمنمة يتدلى أسفل العُنُق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أجلستني ريحانة على دكَّة خشبية بحوش البيت دون أن تسألني عن سبب مجيئي، انشغلت بجريدة الأهرام، سحبَتْها من يدي وطفقت تطالع العناوين، وتربَّعت العجوز على فروةِ غنمٍ بجوارنا ووضعت يديها في حِجْرها، ولحظة وغفت ساهيةً عنَّا أو هكذا ظننتُ..

وبدا البيت مكشوفًا لي وكما لو أنه بيتنا أو بيت عمي أو بيت خالي، أو للإنصاف أقل كثيرًا من بيوتنا لكن المفردات متقاربة: عدَّة كوانين بجوارها فرن بأعلاه مواعين مقلوبة على فوهاتها، عنزة مقيدة في وتدٍ مدقوق بالأرض، طلمبة ماء وكبشة دجاج تمرح حولها، وعن بُعد دجاجة اختلت بنفسها في أحد الأركان تتلفَّت بعصبية وتضرب الأرض بجناحيها مثيرةً الغبار، كانت تبيض والعجوز كلَّ دقيقةٍ تخرج من غفوتها وترمقها بعينيها، وثلاث غُرَف أو أربع في مواجهتي تفصل بينها طُرْقة طويلة، وبإحداها مذياع تأتي منه أغنية لفريد الأطرش:

جبر الخواطر على اللـه..

مش طالب منَّك غير طَلَّة..

تعالى سلِّم وانا اسلِّم.. وبالعين وبس هنتكلِّم..

كنتُ مفتونًا بهذه الأغنية، بنبرة العتاب الخفيف الذي تتضمنه الكلمات والنَّغَم الحزين الذي يمسُّ القلب، وعندما يطول عليَّ الوقت دون أن أسمعها كنتُ

أسأل أمي: متى تُذاع من جديد في الراديو؟ وهي دَهِشةٌ من هذا السؤال العبيط..

أشعرتني الأغنية ببعض الراحة فلا أنكر أنني كنتُ متوتِّرًا، ليس من تعامل جدَّة عدلي معي، لا. لا. ليس هذا هو السبب الأول، فقد تعاملت مع عواجيز أشرس منها، وكُنَّ يُدخلنني في ارتباكٍ وأجري من أمامهن أحيانًا، وبعدها تدربتُ وأصبحتُ أحقق انتصاراتٍ عليهنَّ..

كنتُ متوترًا من وجودي ذاته، من البيت الذي أنا فيه..

ومن أول ما دخلت وعيناي في قمة الانتباه وكأنني أخطو نحو عالَمٍ محفوفٍ بالغموض، فالبيت أصحابه غرباء عن البلدة كما أننا لسنا على دينٍ واحد، صحيح أن الأنبياء إخوة لكن الأتباع غالبًا ما يكون لهم شأنٌ آخر مع بعضهم البعض..

وأسئلةٌ تلوح في ذهني: مَنْ هؤلاء الناس؟ وما الدنيا التي يعيشون فيها؟ وما الذي يفعلونه وهم بمعزلٍ عنَّا؟ وما الأسرار التي في بيوتهم ويحجبونها عنا...

الأسئلة التي كان العيال يطرحونها على بعضهم البعض أمامي، وبأكاذيب الخيال يجيبون عليها إجاباتٍ لعينة..

لم أكن أنساق وراءهم فأمي على الدوام في ظهري وأحيانًا أبي، ورغم ذلك حضَرتْ الأسئلة كلها أول ما ولجتُ عتبة هذا البيت، وهي دقائق وبدأتُ في التململ، لم أعُد أستسيغ البقاء، ولولا الحرج لسحبت الجريدة من يد ريحانة وانصرفت.

كانت مفرودة على ركبتيها وتقرأ منها بصوتٍ مسموع وبإصبعها تتنقل بين السطور، إصبعها شدَّت بصري، جميلة، هكذا رأيتُها، لونها خمريّ والظفر به بعض الطول وآثار مانيكير، والقراءة بصعوبة، تتهجَّى الكلمات وكلَّما نجحت في إكمال إحدى العبارات تلتفتُ إليَّ بزهوٍ لذيذٍ فأقابله بابتسامة، تهجِّيها أيضًا جذبني، لا يصلني على أن قراءتها عاجزة مُملَّة، بتاتًا، على أنه موسيقا ودلال، في المجمل كنتُ مستمتعًا بها، استمتاع الصغار ممَّن ليس لهم في هذا ولا ذاك، وعندما نحَّتِ الجريدة جانبًا سألتها عن المعلم عدلي: هل هو هنا أم لا؟ وهبطتُ من فوق الدِّكَّة استعدادًا للرحيل.

لا أظنها سمعت ما قلت، وجاءتني الإجابة من العجوز التي كنت أحسبُها نائمة:

- عمَّك عدلي قاعد مع أبونا.

قالتها وعيناها مغمضتان، ثم رفعت جفنيها محدِّقةً فيَّ:

- النهارده الحَدّ وبيقعدوا كلهم في مندرة عمك لبيب النجار مع أبونا وهيب.

وريحانة التي انتبهت تسألني:

- عارف أبونا؟

- آه عارفه، الشيخ بتاعكم.

تبتسم لهذا التشبيه، والابتسامة بدلال، ربما ليست كذلك وأنا الذي تصوَّرتُ هذا، وتثرثر معي وبين الحين والحين تلكزني في كتفي على سبيل الدعابة، أعجبتني اللكزات ووددت لو أعاملها بالمثل وألكزها أنا الآخر غير أنني استحيتُ، بصراحة كل ما يبدر منها تجاهي كان يُعجبني، وعندما سمعنا بكاء طفل ابن شهور يأتي من غرفةٍ بالداخل هبَّت إليه مسرعةً، والعجوز وضعُها مُحيِّر: هل غفت من جديد حسبما أرى أم لا، وعدتُ أنا إلى الدكة مرةً أخرى، أرَحتُ أكتافي عليها، لم أعُد أفكر في الانصـراف، أو على الأقل الآن، ففي الوقت مُتَّسعٌ والدنيا لن تطير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

وهل هذا سؤال يا ست ريحانة! طبعًا أعرف أبانا وهيب..

ومن قبل أن تعرفوه أنتم أو سمعتم به..

أعرفه من سنة وكسور، من أول يوم جاء فيه قاصدًا بيت المعلم لبيب النجار (عرَّاب) أقباط بلدتنا وصاحب الكلمة فيهم؛ فالمعلم لبيب هذا أغناهم وأقواهم والفرع الذي ينتمي إليه أصل من أصول البلدة، وأجداده الأوائل من السكان القَدامَى الذين شاركوا في إنشائها وعمارتها كتفًا بكتف مع العائلات المسلمة.

لكن – وحسبما يُقال – أول عيب فيه أنه كان مختالًا، ويحبُّ أن يناديه الناس بـ (المقدِّس لبيب)؛ فلم يكن يكفيه أن يخاطبوه بـ (المعلم لبيب)، لقب المقدس كان مهمًّا بالنسبة له، أشبه بكلمة (الحاج) بالنسبة لبعض المسلمين، رغم أنه لم يحجَّ إلى بيت المَقْدِس أو ولج بقدميه كنيسة القيامة، وهذا الكلام ليس من عندي، خرج من عند الأقباط أنفسهم، فبعضهم كانت له تحفُّظات عليه ويقول بما يشبه الانتقاد: إن زوجَه الست نرجس هي وحدها التي قدَّست في صِغَرها، وبابتسامةٍ قد تكون ساخرةً يضيفون بأنه رجل طيب ويبدو أنه جاء في اعتقاده أن هذا اللقب ينسحب عليه! أما أنا فكنت أميل إليه ولسببٍ شخصيٍّ بحت؛ كان لطيفًا معي وما من مرَّةٍ التقاني إلَّا وبشَّ في وجهي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وليس من كنيسةٍ في بلدتنا..

إن كان على الأقباط فقد حاولوا، ابتاع المعلم لبيب قطعة أرض وشرعوا في البناء عليها، ولسوء الحظ كانت تجاور غيط رجل فالت من (شَبِّيحَة) بلدتنا اسمه (عطية ديل)، وطبعًا لم يعجبه هذا الأمر، اعتبره تجاوزًا، تركيبة عقله هكذا، وتَزرْبَن هو وأولاده الخمسة، نفضوا عنهم جلابيبهم ووقفوا لهم بالسراويل والصَّدَاري والنبابيت، ولحق بهم بعض المهاويس وعلى رأسهم الشيخ سطوحي ذاته، أنا عن نفسي لم أرَ هذا المشهد، سمعتُ به من آخرين، وقيل من ضمن ما قيل أن شيخنا سطوحي ومُعلِّمنا ومُؤدِّبنا في الكُتَّاب كانت بيده خشبة وعلى استعدادٍ لأن يفتح بها رأس أيّ إنسان يقف في طريقه، وكان من الممكن أن يفعلها لولا ستر اللـه، وليس هذا لأنه مجرم بطبعه، أبدًا أبدًا، ففي حقيقة الأمر كان (غلبان)، فهمُه للأمور هو سبب بلواه؛ يحسَبُ أنه يجاهد في سبيل اللـه..

ثلاثة أيام والبلدة على هذا الحال، وكدمات وإصابات ناهيك عمَّن أصيبوا بكسورٍ خفيفة، ولم يكتمل البناء أو تجاوزت الكنيسة كونها هيكلًا فارغًا، طوب وحجر بلا نوافذ ولا أبواب ولا أبخرة وتراتيل وأناس يعبدون اللـه، ولم يعُد يقترب منها أحد، لا مسلم ولا مسيحي، وكلُّ مَن يمرُّ أمامها مصادفةً يرمقها بصمتٍ وأحيانًا بأسى، وسكت الأقباط لكن ما وقع خلَّف جرحًا في نفوسهم وقطع العَشَم الذي كانوا يتوقعونه من أهل بلدتهم، فلم يُناصرهم أحد، خذلوهم وتركوهم وحدهم..

وكل يوم أحد ينقسمون فريقين، فريق يظلُّ جالسًا في بيته مثل البعض عندنا ممَّن يفوِّتون صلاة الجمعة ولا تشغلهم العبادة كثيرًا، وفريق يرافق المعلم لبيب إلى كنيسة البندر، بعيدة بعض الشيء، عشرة كيلومترات بيننا وبينها، غير أنهم كانوا يترقبون هذا المشوار كل أسبوع بشغفٍ، رغم أنهم يعودون منه هَلْكَى آخر النهار.

يمتطون عشرة حَمِير أو أكثر قليلًا، وكلها حمير عَفيَّة لتتحمَّل هذه المسافة خاصةً أن منهم مَن كان يضع ابنه خلف ظهره.

كنَّا نراهم على حافة السكة الزراعية متجهين صوبَ البندر في تشكيلٍ أشبهَ بالطابور، المعلم لبيب دابَّتُه في المقدمة وبعمامته والشال المتدلِّي على كتفيه والساعة ذات الأستيك المعدن يبدو أكثرهم مهابة، يُتمُّون مشوارهم بنجاحٍ طوال العام، لا يتوقفون سوى في أيام الشتاء الصعبة، كياك وطوبة وبعض من شهر أمشير؛ أمطار وأوحال والسِّكَك مقطوعة..

يتجمعون في هذه الأيام بـ (مَنْدرَة) المعلم لبيب ويتولَّى هو طقوس الصلاة، يتلو النصوص القُبْطية بنفس الإيقاع الذي تُتلى به في الكنائس، يتلوها غَيْبًا، وبغير فهم، هذا كل ما عنده فهو لا يعرف اللغة القبطية من الأساس ويردد فقط ما حفظه عن ظهر قلب، ثم يبدأ بعدها في الوعظ والإرشاد وأكثر الجالسين غير مقتنعٍ به؛ فالرجل ليس مُفوَّهًا ولا مُتعمِّقًا في الدين كما يجب، ثلاث أو أربع كلماتٍ وعظ ويبدأ بعدها في الكلام الفارغ: السواقي والطنابير التي يصنعها في ورشته أو الدِّكَك والطَّبالي وأيادي الفؤوس وباقي هذه الفسَافِس، أو الولد (حنَّا) الذي انكشطت ذراعه بـ (الفارة)[2] ، فبدلًا من أن يهبط أعمى العين (جرجس) بالفارة على لوح الأبلكاش الذي أمامه هبط بها على ذراع المسكين حنَّا، بهدله، وشهر في المستشفى وشهران راقدًا في بيته وهو – المعلم لبيب – الذي تحمَّل كل المصاريف، وهم يُنصتون له بضَجَر، حكاية قديمة وكلهم قاموا معه بالواجب ساعتها، ولا لزوم لِلَّتِّ والعجن فحنَّا الآن بخير ولا مشاكل..

المتدينون منهم بالذات سأمُهم شديد من هذه الجلسات، لا يريدونها (مَحْدَتة) يريدون رجلَ دينٍ بحق، لا هذا الـهُراء..

اشتكوا عدة مرات، ومنهم مَنِ انهال بالتلغرافات على المَقرِّ البابوي ذاته حتى بعثوا لهم الأب وهيب كلَّ يومِ أحد، والجلسة في بيت المعلم لبيب بعد أن أقسم بالمسيح الحيّ ألَّا بيتَ إلَّا بيته، فالرئاسة عليهم أمر لا يقبل الجدال فيه ورغم حرصه في الإنفاق فإنه كان يُنفق وينفق لتأكيدها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكنتُ أنا شاطحًا يومَها عند الموقف عندما وصل الأبُ وهيب..

لم أرَ زِيَّ رجل الدين عند الأقباط من قبل، فوقفتُ مشدوهًا بعض الشيء ومُحصِّل الباص يهبط بأبينا وهيب بردائه الأسود في أسود وغطاء الرأس أيضًا أسود هو والحذاء، وطفق المحصل في التلفُّت حوله عمَّن يساعده ثم توسم خيرًا في أحد الواقفين، وسبحان اللـه! كان توسُّمه في محلِّه؛ فالرجل الذي اتجه إليه هو (الشيخ عليش)، هكذا كانت البلدة تسميه وبقصد أنه شيخٌ في الـخُلق والتديُّن وعفَّة النَّفْس وليس كمرتبة اجتماعية يحوزها بمقاييس الدنيا، أعطاه الناس هذه الصفة بلينٍ ورضًا وسماحة رغم أنه بلا عمامة أو جُبَّة وقُفْطان ولا علاقة له بالأزهر أو وزارة الأوقاف، ولم يخطب مرَّةً في صلاة جمعة أو أمَّ الناسَ في جامعهم بالعِبّ الشرقي للبلدة حيث يسكن إلَّا عند غياب شيخه ذي العمامة وبطلبٍ من الناس، وكان يمتهن مهنة القِياسَة، يقيس الأرض عند كل عملية بيع وشراء، أو يعيد رسم الحدود من جديدٍ إذا نشب خلاف حولها بين الجيران، وطافت شهرته في البلدة بالدقة والأمانة، صار مرجعية في هذه المهنة، وإذا قاس قطعة أرض لا أحدَ يراجع عليه، يقولون: هذه قياسة الشيخ عليش، فيتقبلها الناس ويُومِئون برءُوسهم راضين، وفوق هذا كان يقرأ القرآن في المآتم لوجه اللـه، لا يقبل مليمًا لقاءَ ذلك، يعتبرها إهانةً لكلام اللـه ثم له..

والمُحصِّل الشهم الذي يهبط بأبينا وهيب يكاد يقف أمامه، ويقول له ما بين الابتسامة والرجاء:

- يا عمّ الشيخ، دا أبونا ودي أول مرة يركب فيها الخط بتاعنا.

يتلقَّاهُما الشيخ عليش بابتسامةٍ مُرحِّبة، ويمدُّ يده بالسلام:

- أهلًا وسهلًا، ينوَّر ويآنس يا حضرة المُحصِّل.

- عايز يروح عند واحد اسمه المعلم لبيب النجار.

- عيني يا حِضرة المحصل.

هكذا كان أسلوبه في التعامل والتخاطب: احترام الصغير قبل الكبير، واقترب بعض الناس، مجرد اقتراب، منهم مَن يتفرج ويميل على أُذُن مَن بجواره ويهمس، والذي يحدِّق بشهامة وعلى استعداد أن يعاون ويساعد إذا طُلبَ منه ذلك، الأولاد - وهم بكثرة عند موقف السيارات – هم مَنْ أحاطوا بأبينا وهيب بعد ذهاب المحصل، لم يألفوا هذه الثياب أو حتى رأوها من قبل وكأنما اندهشوا منها حالهم حالي، ودفع الفضول بولدٍ صغيرٍ أن يتحسَّس رداء أبينا بباطن كفِّه وهو يلحظ ويُربِّت على كتفه فيرفع الولد رأسه إليه مبتسمًا، واصطحبه الشيخ عليش ونحن وراءه، كنا قرابة سبعة أولاد أو ثمانية وعندما وصلنا إلى بيت المعلم لبيب أصبحنا عشرين..

كان انطباعي عن أبينا في هذا اليوم وبعد عدة مرات شهدتُه فيها أنه ينشُد الألفة بأية وسيلة، فمن أول يوم وهو يبادر بإلقاء السلام على الناس مع تشويحة ظاهرة وملحوظة، ويُقبل على مصافحتهم إذا شعر باستعدادهم لذلك ولو كان هذا الاستعداد ضعيفًا، ويبالغ في هَزِّ أيديهم، لا أظنُّ أن حرارة السلام هذه بقدر ما عنده في الداخل، فهو لا يعرفهم وهم لا يعرفونه، الأمر بعضه سياسة، ومعذور في ذلك فالرجل يجتهد ويحاول، والبعض وَدُود معه والبعض في عينيه تساؤل، ومَن يرمقه بصمتٍ وبعد أن يمضي أمامه يظلُّ يتابعه بعينيه إلى أن يغيب..

حتى الكلاب التي تسرح في الشوارع اختلفت ردود أفعالها هي الأخرى، مَن شبَّ على قوائمه ونبح في وجهه برذالة، ومن رمقه بنظرة عابرة لا شرَّ فيها ولا تحفُّز، أو كلاب لطيفة والخير في قلوبها، لم تكتفِ بإعطائنا الأمان وسمحت لنا بالمرور أمامها دون اعتراضٍ أو نُباح، رافقتنا، مشت وراءنا وبعضها أكمل حتى بيت المعلم لبيب..

وعند عودته بعد كلِّ صلاةٍ للأقباط، كان يمرُّ على دكَّان أو اثنين ليبتاع بعض المستلزمات، صابون، شاي، زيت، لفَّة خيط أو دوبارة، مع أن البندر مليء بهذه الأشياء وربما أجود وأرخص، وأحد عيال الأقباط يسير إلى جواره ويحمل عنه هذه الأشياء ويضعها له في الباص، هذا الأمر على بساطته كان مفيدًا؛ إذ كان يلقاه صاحب الدكان بابتسامةٍ فتسري هذه الابتسامة بين الواقفين، ومنهم مَن يسلم عليه باليد وأحيانًا بحفاوة، وإذا تصادف وكان أحد الأقباط موجودًا تبدو عليه الراحة..

وبعد أن يمضي إلى حال سبيله، تتناثر التعليقات:

- راجل طيب..

- آه.. طيب..

- وف حاله، يدِّيهم الدرس وسلام عليكم، عليكم السلام..

ومَنْ لا يعجبه ما يُقال غير أنه لا يصـرِّح، فالجوُّ العام كان متماهيًا مع الأب وهيب وصار له قبولٌ بين الناس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

لا يطول بقاء الأب وهيب في خيالي..

يرحل، والعجوز التي استيقظت حالًا تسأل:

- وهو انت كُتّ عايز عدلي في إيه؟ أبوك هو اللي باعتك؟

أقول لها عن سبب قدومي..

- كده، بسيطة، عمك فهيم بيستحمَّى وآهو زمانه خلَّص، وبضاعة رمضان جَتْ أول إمبارح ولسه برصِّتها مرحتش الدكان، وخد اللي إنت عايزه.

وكانت الدجاجة التي تبيض قد أنهت مَهمَّتها، فقامت والتقطت البيضة من أسفلها وهشَّتها كي تتحرك، ورجعت والبيضة في يدها، وضعتها في حِجْرها بعد أن تربَّعت أمامي ودخلت في شوطٍ من الأسئلة:

- هيَّه أمك اسمها إيه؟

لم أُجِب، وهي تتعجَّلني:

- ما ترد، ساكت ليه..؟

وسؤال آخر:

- إنت أكبر إخواتك؟

- الوسطاني..

- وانتوا على كده كتير؟

- خمسة، والصغيرة اسمها ياسمين ولسَّه بترضع.

- لسه بترضع!

- آه.. عندها سنة وأربع تُشْهر.

وبطيبةٍ فجائية:

- ما شاء اللـه.. ما شاء اللـه.. ربنا يخلِّيهالكم.

وترسم علامة الصليب على صدرها، وكانت هذه أول مرة أرى فيها هذه الحركة وأعرف أنها دعاء وبركة..

ثم تعود إلى الغلاسة:

- وهيَّه أمك شايبة ولَّا لسه صبيَّة؟

لم أردّ..

- يعني لسه فيها حيل للخلَف ولَّا خلاص بطَّلت؟

لم أردّ أيضًا..

وبظفر إصبع السَّبَّابة تحكُّ مؤخَّرة رأسها:

- تبقى أختك على كده من دور الواد كرم.

- كرم مين؟

- كرم ابن ريحانة.

وتحسب الأشهُر على أصابعها غير أنها تغلط في ترتيبها وأسمائها، وأنا أُصحِّح لها حتى ضجرت، وتسأل من جديد:

- أختك على كده أكبر من لبيب بخمس تُشْهُر، صحّ ولَّا لأه؟

- لبيب مين؟

وهي مندهشة:

- دهْدِي! إنت جرالك إيه؟ مش تفطن للكلام، لبيب ابن ريحانة!

أراجعها عمَّن هو ابن ريحانة بالضبط، كرم أم لبيب؟

- كرم! كرم دا إيه، جِبْت الاسم دا منين؟ أنا قلت كرم يا واد يا كدَّاب إنت!

ففهمتُ أنه لا حلَّ معها وعاودتُ الصمت، لم أعُد أُجيب على أي استفسار أو كلمة تقولها إلى أن نظرت إليَّ بغضب:

- إنت أطرش يا ولَه، دا أنا بقالي ساعة باكلِّمك..

تُفاجئُنِي بعدها:

- إيه الريحة الوحشة دي، إنت عملتها على نفسك؟

وأنا أُتمتم في سِرِّي: أنا (برضه) اللي عملتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وسَعلةٌ تأتي من الداخل يظهر بعدها المعلم فهيم بهيئةٍ جديدةٍ ووراءه ريحانة تحمل طفلها، جلست بجواري على الدِّكَّة وظلّ هو واقفًا، ذقنه حليق وشاربه حوافُّه متساوية والجلباب نظيف، بدَا شخصًا آخر غير المعلم فهيم العابس المُترب الذي ألقاه في الدُّكَّان.

بادرني بابتسامةٍ أقرب إلى الضحكة:

- سي علي، وعرفت البيت! ما شاء اللـه..

وأنجز المطلوب في الحال، وعندما مدَدْتُ له يدي بالورقة النقدية التي أعطتها لي أمي لوَّح رافضًا:

- عيب يا سي علي، إنت عايز تركِّبنا الغلط، دي حاجة متَّاخده من البيت مش من الدكان.

وأنا أُجيبه بارتباك:

- لأ. ماينفعش.

وأرفض وهو يصمِّم وريحانة تؤازره وتشجعني على القبول، والعجوز:

- ماتحاسبه يا واد يا فهيم، أُمَّال هياخد الحاجة ببلاش!

وهو يهاودها:

- حاضر يا حنَّة حاضر، أنا لمَّا أقابل عمّ الحاج سلامة هتحاسب معاه.

- آه تحاسبه.

وأنا تنتابني رغبةٌ في أن أهبط من فوق الدكة وأَعضَّها في كتفها لعداوتها لي دون سبب، وللكيمياء المفقودة بيننا من أول ما دخلت، وزاد المعلم فهيم في تقديري بمقدار الضعف عمَّا كنت أراه في الدكان، وأقول له دون مقتضى:

- إزَّيك يا عم فهيم..

فيُربِّت على رأسي وريحانة ترمُقني بابتسام ثم تعود إلى ابنها الذي يناغيها ويضربها بكفِّ يده كلَّما انشغلت عنه، والعجوز مشغولة بالبيضة تُقلِّبها وتُبعدها في مواجهة الشمس؛ لترى ما إذا كانت فارغةً أم تحمل بذرة كتكوت..

كانت فارغةً واتهمتني بأني السبب!

- مبسوط! آهي على وِشَّك طِلعت فاضية..

وفهيم يقول لها بضيق:

- يا حنَّة مش كده..

ويحاول تطيـيب خاطري:

- متزعلش يا سي علي، أصل حِنّتي لا مؤاخذه كده..

وهي تقوم ربع قومة مُشيحةً في وجهه:

- مالها حنّتك يا قليل الأدب..!

وقبل أن أتهيأ للانصراف، تقول لي ريحانة وهي تشير إلى ابنها:

- اسمه برهومة، أول عيالي..

ثم تضعه في حِجْري:

- في شهادة الميلاد اسمه إبراهيم، وبرهومة اسم الدّلع.

وأنا أهمس لها بأن العجوز أبلغتني بأسماء أخرى له..

- خالتي! أمري للـه..

لم يجزع إبراهيم من نومته في حجري، رمقني بسكون وعندما داعبتُ شفَتَه بطرف إصبعي بدأ في الابتسام وأحاط هذه الإصبع بكفِّ يده، وريحانة تقول:

- يبقى سلِّملي على الست والدتك وقولَّها خالتي ريحانة عايزة تزورك، بس استأذن لي منها الأول.

وتميل على العجوز:

- إيه رأيك يا خالة، آهو نرُوح سوَا دا احنا بقالنا هنا سبع تُشْهر، ولحد دلوقتي رجلك مخطِّتش عتبة الباب.

والعجوز كأنها لم تسمع، وعندما رجعتُ لأمي وأبلغتها رحبت:

- يآنسُوا وينوَّروا..

وتسألني:

- يعني غبت؟

- أصلهم عملولي شاي..

لا أعرف لماذا قلت لها هذا رغم أنه لم يحدث، وأتأنَّى لحظةً وأكذب كذبةً ثانية:

- وكمان جابولي فايش وبسكويت.

- بسم اللـه ما شاء اللـه، بقيت راجل وبتتضايف!

- الوِلِّيَّة العجوزة هيَّه اللي عندها وَشّ..

وأمي مشيرة بسبَّابتها:

- عيب.. عيب..

ألتقي بعدها بزُمْرة الأولاد التي ألعب معها، وأؤكد لهم بأنه لا فرق بيننا وبينهم مثلما يظنون، فيزغدني أحدهم بقبضة يده:

- إنت كدَّاب..

يلوح على وجهي الضيق وأردُّ عليه بانفعال:

- إنت اللي ستين كداب، دا حتى عمّ فهيم أنضف من أبوك.

وكدنا أن نتعارك والأولاد ما بين التسليم بما أقول والتشويش الذي يُحدثه هذا الولد، وإن كنتُ لا أحسَبُ أن ما قلْتُه له أو انفعالي عليه بسبب المعلم فهيم بالذات، إنما لسخريته من حكمي وتقديري للأشخاص..

برَّرتُها لنفسي على هذا النحو..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

تنتابُني الكآبةُ بعد زيارتي لبيت عدلي وفهيم..

ليس بسببهما، بسبب عمّ الدّريني، وكان هذا أول زَعَل كبير أزعلُه تضامنًا مع الغير، وبدأت أشعر بأن بين الناس فوارقَ لا تُـرَى بالعين، فلا هي أرضٌ وفدادين ظاهرة كعين الشمس، ولا هي عِزّ ولا جاه يُباعد بين بيوتٍ ذات أسوار وأبواب عريضة وبيوت عتباتُها نحيلة وتُغلق بأصابع من جريد، فوارق في النَّفْس من الداخل، مردُّها الغربة وقلة الحيلة، ويا لشدتها عند الاختبار، جرحُها لا يطيب بسهولة..

ففي يوم كنتُ عائدًا من المدرسة بصحبة بعض الأولاد، ونشهد جلبةً أمام أحد الجوامع والدريني في وضعٍ مؤسف..

الدريني صانع الـحُصْر والحبال والمشَّايات، هذه المستلزمات التي تبدو بسيطةً غير أنه لا غنى عنها في بيوتنا، أتقنها في صباه بنواحي فرشوط وجاءنا جاهزًا بها، عاش معنا سنينَ طويلةً وعندما أراد إكمال نصف دينه غادرَنا إلى بلدته القديمة ثم عاد بأُمِّ صابر زوجَه، هو وهي في عِداد الأغراب بالنسبة إلينا، ابنه صابر الذي كان زميلي بالصف السادس بالمدرسة الابتدائية هو وحده من مواليد البلدة؛ فلم ينجب سواه.

بيت الدريني ليس بيتًا بالهيئة التي ترِدُ على الخاطر عندما نسمع هذه الكلمة، شيءٌ أقرب للعُشَّة على أطراف الخلَاء، مطْرَح واحد بالطوب اللَّبِن وما تبقَّى بأفلاق النخيل وأعواد الجريد، ويمضي النهار بطوله في الوسعاية التي أمامه، من أعلى بفانلَّة ذات أكمام طويلة وساقه اليُمْنى ممدودة أمامه وقدِ انحسر عنها السروال إلى ما دون الركبة بقليل، وكومة من خيوط التيل بحِجْره أو على امتدادِ يده، هذا إذا كان الدور يومها على الحبال وليس الـحُصْر والمشَّايات، وبالإصبع الكبيرة لقدمه اليمنى يقبض على قطعة الحبل التي أنجزها، وبأصابع يديه يستكمل ما بدأ مؤلِّفًا بين خيوط التيل.

أصابعه مدهشة، ألاحقها وهي تعمل، تصعد وتهبط وتدخل وتخرج بين ثنايا التيل وخيوطه الرفيعة بحركاتٍ سريعةٍ وشديدة الإتقان في الوقت ذاته، تبدو كما لو أنها تعمل من تلقاء نفسها ودون رعايةٍ وتوجيهٍ من الدريني صاحبها..

جاءني هذا الإحساس عندما شهدتُها على هذا النحو أكثرَ من مرةٍ وهو مشغولٌ عنها، عيناهُ على أحد الجالسين معه وينصتُ إليه، أو إذا التفت إلى أحدٍ يمضـي أمامه وربما ظلَّ يتكلم معه عدَّة دقائق، ويداه في الوقت ذاته تعملان دون غلطة أو انحرِافة لليمين أو اليسار، وكان أول ما يفرغ من فردة الحبل

التي بيده ينهضَ ويأتي بكوزٍ من الماء وبحفنةٍ منه يشطفها لتحتفظ بطراوتها، وعلى مسامير مرشوقة بالجدار الأماميّ للغرفة التي بالطوب أحبالٌ معلقة لمَن يبتاع، وغالبًا ما تكون حصيرة أو اثنتان بأحد الأركان أنجزهما من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم الذي شهدته فيه أمام الجامع غلبني التأثُّر، فكما لو أن أبي هو الذي أُهين..

كان مكسورًا..

يجلسُ مُستندًا إلى حائط الجامع والعين ظلَّلْتها حُمرة لا تزال في أولها، وصفحة الوجه انقبضت أو شاخت، أو ما هذا الذي أصابها، القهر – وبكل تأكيد – هو الذي فعل بها ذلك؛ فهذا الصباح عندما مررتُ على ابنه صابر لنذهب معًا إلى المدرسة كان وجهه غير هذا الوجه.

والذين يلتفُّون حوله مَن يشفق مُربِّتًا عليه، ومَن يأخذ بخاطره:

- استعيذ باللـه يا أبو صابر وحقَّك علينا.

أو يؤازر:

- وهيَّه البلد ملهاش عمدة، حقَّك هتاخده وأنا أول واحد هاشهَد على اللي شُفته.

والدريني على شَفَا البكاء ويحُول دون أن يُفلت الدمع من عينه، فعيبٌ عليه وألف عيب وهو في الخلاء هكذا، والبكاء أقوى، انسال بغير صوتٍ أو نهنهة، بتشنُّجٍ خفيفٍ في الحنجرة وجذع الرأس، وأنا لا أصدق وخزيان له في الوقت نفسه، فلم أرَ رجلًا يبكي، البكاء لنا وللنسوة أما الرجال فمن المستحيلات، هكذا كنتُ أحسَب..

وهو بصوتٍ يكاد يُسمَع:

- معَدْش ليَّه عيش هنا، من بكره هلِمّ حالي ومحتالي وأشُوفْلِي متوى تاني.

وكأنما تمتم: ماهو دا حال الغريب..

هذا الذي استنتجته، فلربما فسرتُ تمتمته على هذا النحو، أو قد أكون قرأتُ حركة شفتَيْه..

وينفجر، ينهض صائحًا فيمَن حوله:

- أنا مش هفيَّه يا ناس وأقدر آخُد حقي بأيدي، أنا بس اللي..

ولم يكمل بقية العبارة، والناس تتكاثر ساخطةً على مَنْ أهانه..

كل هذا الذي شهدته لم يدُم أكثر من دقيقتين أو ثلاث، وأنا ومَن معي من الأولاد فهمناه واستوعبناه في لحظتها، صابر الذي كان راجعًا معنا هو الوحيد الذي لم يستوعب، المشهد أكبر منه، وأول ما جمع نفسه مال على الأرض والتقط حجرًا بسرعة غير أنه لم يعرف ماذا يفعل به، وقع من يدِه بعدها، ثم ارتمى على أبيه وطفق يحدِّق في الناس التي تساعد، كان مرتبكًا ومقهورًا هو الآخر، في حالٍ يلتمس الدعم مثله مثل أبيه، والدريني ورغم الشدَّة التي هو فيها لاحظ واحتواه، وكلَّما تحرك صابر من أمامه يجذبه إليه، ورجلٌ آخر، مُسنٌّ بعض الشيء، يفعل ما يفعله الأب، وتحول انشغال صابر إلينا، وأنا بالذات، مرتين وهو يرمقني، والرَّمْقة ليس لها معنى سوى الخجل والكسوف ممَّا فيه أبوه وأراه الآنَ، وفقدَ الدريني قدرته على التحمُّل، شقَّ جلبابه نصفين وأخذ ابنه وغادَر.

تابعته بعيني أول ثلاث أو أربع خطواتٍ خطاها..

قدماهُ عاريتان، لا مداس في اليمنى أو التي في الشمال، فردة بيده والأخرى تاهت وليس من أعصابٍ ولا تركيزٍ كي ينحني على الأرض ويبحث عنها، ونظرنا نحن الأولاد لبعضنا البعض، وبإحساسٍ جمعيٍّ ونظرات من العيون وجدنا أنفسنا نمضي وراءهما، كان الأمر أشبه بموكبٍ من مواكب العزاء، موكب صامت ومَهيب أيضًا رُغْم أننا مجرد عيال، فالهيبة ليست وقفًا على الكبار وحدهم، مردُّها الأول شدة الموقف وردة الفعل التي تعلو الوجوه، وكلَّنا كنَّا نُجسِّد هذا الإحساس فبالفطرةِ وبراءةِ السِّنِّ الصغيرة لم نكن نقبل لهما الإهانة، وحثَّتنا قلوبنا على الوقوف في صفِّهما، ففعلنا كلَّ ما في الوُسْعِ، ظللنا معهما إلى أن بلغا البيت ووارتهما جدرانه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وعندما رجعتُ إلى أُمِّي وجدتُ ما حدث للدريني طار وسبقني إليها، والست (شفيقة) بائعة الطيور أمامها قفصٌ من الجَريد به عدَّة إوَّزات وتحكي لها:

- وراح الواد (الشحات) رازِع الراجل كفّ على وِشُّه وتافِف عليه.

- شحات مين! ابن سنيَّه؟

- آه.. ابن سنيه وعطية ديل، الواد الزّرِبُون ده اللي داير ينطح في الناس.

وتُضيف:

- ربنا مايكسِّبك يا عطية ديل، في أول زمانك كُتّ حرامي وبتنُطّ على الحيطان وفي آخر زمانك بدَرْت لنا في البلد عيالك الأوساخ.

وأمي تتساءَل:

- والدريني سِكِت له ليه! دا عفي وبصحة وبقدر يقسمه نُصِّين.

وشفيقة تجيب:

- بس برضه يا حاجَّة، وحداني وعامل حساب لأهله.

ثم تشرع في تزكِّية بضاعتها:

- سمِّي يا حاجَّة سمِّي، القفص كله وِزّ ووَرَاوِر كمان، اللي بنت تلت تُشهُر واللي أربعة.

وتؤكد:

- خِلْفة الشتا اللي فات، مفيش عتاقي، مبشتغلش فيه.

وأمي تتحسَّس إحدى الإوِزَّات، وتمرِّر إصبعها على منقارها المشطوف:

- ودي كمان وِروِرَة، دا طالع لها شنب!

- اسم اللـه عليكي يا حاجَّة، دي هيَّه اللي فايرة وسابقة عمرها.

وتأخذ أمي في حكايات أخرى، وبعد أن يطول الوقت تسأل:

- إيه يا حاجة هتشتري ولَّا اتَّكل على اللـه؟

وأمي بعد أن تحسَّست الإوِزَّات من جديد:

- هاخُد دي ودي، أما البتاعة الشايخة دي يفتَح اللـه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما ذهبنا إلى المدرسة في اليوم التالي لم نجد صابر..

جاءنا بعد يومين وانكمش في أحد الأركان لا يلعب أو حتى يتكلم، كلُّ ما بيننا وبينه رمقات فقط، إلى أن قال لنا في آخر اليوم التالي:

- خلاص أبويا اشترى نُبُّوت وناوي يكسَّر بيه عضم الشحات.

ونحن لا نعلِّق، نتابعه وهو يضيف بانفعال:

- ومش بس الشحات، وأبوه عطية ديل ذات نفسه.

ويحدق في وجوهنا كأنما يشعر بأننا لا نصدق ما يقول، ويومٌ آخر وجاءنا:

- دُول عملوا حقّ عرب وحبَّوا على راس أبويا، الشيخ (واعر) هو اللي عمل الحق وحَكَم بخمسين جنيه ويندفعوا دلوقتي قُصاد غلطة الشحات، وهُمَّا سكتوا.

وبحماسةٍ:

- لكن أبويا مرضيش، قال: اللـه الغني وحُطوهم في أي جامع، أنا كفاية عليَّه دَخْلة الشيخ واعر.

كان يشعر بإشفاقنا عليه، ويرمِّم الصورة التي ظنَّ أنها تشكَّلت لدينا..

لم يخرج من هذه الحالة ويبدأ في اللعب معنا إلَّا بعد أكثر من أُسبوع، أبوه وسيد من أسياد الكون بالنسبة له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

وكأن عدلي وفهيم راحا من بالي..

جذبني دكان عمّ زكريا وبدأتُ في التسكُّع عنده، مجرد تسكع فلا رغبةَ لي في الشراء لنفسي أو كلّفتني أمي بأي شيء، ومع الزحام ولكون حافة البنك مرتفعةً قليلًا عن مستوى رأسي لم يكُن يلحظني عندما أندسُّ بين الزبائن، وعيناي كبندول الساعة بينهم وبينه خاصةً إن كُنَّ نسوة، وتدريجيًّا وبمساعداتٍ من أصدقاء أكبر سِنًّا بدأت تعلَق بأُذني مفردات جديدة، مفردات حمَّالة للمعاني تدور بينه وبين حسناواته، ومغازيها والالتواءات التي تسير فيها..

ويلمحني هذا العكروت، وكان من يومه حذِرًا مني، ينقر بإصبعه نقرةً خفيفةً على رأسي:

- أهلًا أهلًا يا سي علي، إنت شرَّفت! طلباتك؟

ليست لي طلبات ومع ذلك لا يباغتني السؤال أو أرتبك ففي رأسي سيناريوهات عديدة لهذا المأزق، أوَّلها أن أقول له: نسيت! وأنسحب بحجة مراجعة مَنْ هم في البيت، وكان الواقفون يعذرونني، عيِّل! وكثيرًا ما يحدث هذا ممَّن هم في سنِّي، هو وحده الذي كان يتشكَّك، أو أطلب منه أي شيء ألمحه أمامي على الأرفُف، أو ربما يطرأ على بالي طلبٌ من طلبات أمي التي لا تنتهي، وأعود إلى البيت وبيدي إبرة وابور، علبة ورنيش، جِلدة حنفيَّة، لا تحاسبني أمي، تكرَّر هذا الأمر مني كثيرًا ولم تعُد تسأل أو تندهش، تأخذ مني الشيء الذي في يدي وتدفع لي ثمنه..

أبي هو المشكلة..

فعندما قدمتُ له مرةً رباط حذاء نهرني، وأنا ألوِّح بسبَّابتي في الهواء مؤكِّدًا أنه هو الذي كلفني بشرائه من أسبوع لكني نسيت، وعندما تذكرت هَا أنَا أحضرته، وهو ينكُت ذراعه نافيًا بغضبٍ ولولا تدخُّل أمي لقذفني بأيِّ شيءٍ في يده، كانت قادرةً على تهدئته، وفي النهاية تمتم قائلًا: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللـه..!

ويصلُني صوتُه محدِّثًا أمي، وأنا أفلتُ خارجًا من باب الغرفة:

- الولد ده مش مظبوط، عنده تهيؤات ولَّا عبيط ولَّا إيه اللي فيه..؟!

وبهدوءٍ يؤكد لها وجهة نظره:

- من كام يوم برضه دخل عليَّه بآستيك ساعة، وأنا عمري ما لبست ساعة في إيدي، ساعتي بكاتينة، مانتي عارفاها اللي بتتحط في جيب الصديري.

ويشيح بيده مكملًا:

- إيه رأيك بقى!

- عيِّل يا حاج عيِّل..

- عيِّل!

قالها بنبرةٍ ليس فيها ذرَّة اقتناع، وكل هذا بسبب زكريا ابن (فطُّوم)..

فالسفهاء يتداولون اسمه على هذا النحو، ينادونه باسم أمه، وابن فطوم يتغاضى أو كأنه لم يسمع، ودكانه ما شاء اللـه هو (البرْنجِي) في البلدة كلها وبعده بشوطين أو ثلاثة دكان مشالي، فالناس عند زكريَّا طوابير طوابير ومن النسوة مَن يَجِئن له من بعيد، من الحارات الفطيس التي في ذيل البلدة، وهو على قدميه من أول النهار إلى ما بعد صلاة العِشاء، لا أعرف من أين كان يأتي بكل هذا التركيز وهذه الصحة!

كل هذا الصيت ليس مردّه كِبَر حجم بقالته ففي البلدة بقالات أكبر منها، ولا للأصناف التي كان يأتي لنا بها من البندر أو حتى من مصر ذاتها ولم نكن نعرفها أو سمعنا بها من قبل..

زكريا ذاته هو عامل الجذب..

خصوصًا للنسوة، ولعلَّ هذا ما جعل البعض يتحسَّس منه، قرون الاستشعار خوَّفتهم، نعومته في الكلام، عطر (اللاڤـندر) الذي يفوح من صدر الجلباب، يداه التي يناول بهما البضاعة، بيضاوان ملساوان والأظفار مقصوصة بعناية والشَّعْر النابت فوق الأصابع لونه خليطٌ بين الأصفر والأسود، وخاتم في الخِنصَر فصُّه من الفصوص التي تلمع، والنسوة التي تشتري تلاحظ وتقارن يديه بأيادي أزواجهنَّ التي كلها حراشِف وأشبه بكيزان الذُّرة.

كلُّ هذا أقلق الرجال؛ جعلهم يحتاطون..

ومنهم مَن كان يحلف على زوجِه أو يميل على عصاهُ مُهدِّدًا إن هي خطت خُطوةً واحدة نحو دكانه، ويقترح عليها بقالاتٍ أخرى أصحابها نفضوا أيديَهم من الدنيا ووجوههم تنطق بالوكسة، وأن هذه هي نهاية البني آدم في الحياة مهما تشيْطَن أو تغَنْدَر في شبابه.

يقول لها: عليكِ ببقالة الحاج عبد الراضي أو الحاج حميدة، باعة أفاضل محترمون.

وعبد الراضي وعرفناه، أما حميدة فلم يكن (زلنطحيًّا) مثله لكن كان فوق أكتافه داهيتان؛ الأولى أن دكانه مُعبَّأ بالڤيروسات؛ فلم يكن يتوقف عن السعال والعطس في وجوه الزبائن، والداهية الثانية أنه في حاجةٍ لإجراء عملية جراحية في عينيه الاثنتين، فالمسكين كان يفشل في تمييز مَن يقف أمامه: هل هو رجل أم امرأة! لكنه كان فَطِنًا ويستطيع التفرقة من نبرة الصوت..

والمرأة التي تستمع لهذه النصائح من بَعْلِها، تومئ له برأسها وتهاوده:

- النبي حبيبك ما تزعل يا خويا، خلاص آخر نوبة، معُدْتش أخطِّي وأروح إلا لدكانة عمّ حميدة.

والزوج يحركه ضعفها أمامه، يشعر بأنه بالَغ في غضبه وأن من الرحمة والبرِّ بزوجه ألَّا يضيِّق عليها؛ فيتساهل:

- ومش ضروري عمِّك حميدة، دكانته بعيدة، عندك الحاج عبد الراضي محترم وحافظ كتاب اللـه، ولَّا الشيخ علَّام..

وهي تتماشى معه، وأول ما يضع فأسه على كتفه ويرحل إلى زكريا تلعب وتُثرثر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاءنا زكريا محمولًا على كتِفِ أمه من أربعين سنة، ومن يومها هما معنا..

وقصص وحكايات..

في أول الأمر قالوا: مسروق من أهله..

كلام قديم، الأجداد هم الذين قالوه، فلا سمعته منهم ولا شهدت هذه الأيام..

قِيل بعدها: ابن حرام والمجرمة أمه طفشت به إلينا..

ومن استحرم هذا الافتراء وأفتى بشيءٍ جديد، قال: الأمر ليس هكذا، الحكاية وببساطة أنه هو وأمه من الغَجَر الذين يعيشون في صحراء البحيرة..

والناس تقاطعُه: هل أنت متأكِّد يا حاج عمارة؟

- متأكد! طبعًا متأكد.

ويستطرد: والغجر لا مِلّة لهم ولا دين – مثلما تعلمون – ويأتون بالعيال من غير ورقة ولا مأذون، فهذه حياتهم ولا تلوموه عليها..

وعندما يعترض أحدُ الجالسين مُستكثرًا هذا الكلام، وأنه رأى بطاقته الشخصية بنفسه ومذكور بها اسم الأم واسم الأب حتى الجَدِّ الثالث، كان الحاج عمارة يُكذِّبه ويؤكد أن البطاقة هي الأخرى (مضروبة) شأنها شأن صاحبها.

فالغيرة والحسد جعلا سيرة زكريا تدور على المصاطب وبين دورات لعبة (السِّيجَة)[3] *، أو في القعدات التي كانوا يقعدونها مستأنسين بالحركة والأضواء المنبعثة من الكلوبَّات المدلَّاة أمام الدكاكين السهرانة، أما بين النسوة فكان الأمر مختلفًا، لا تأتي سيرته إلَّا بالطيِّب وبغمزات فيها بعض الشهوة، وقد تكون الواحدة منهن ليست في حاجةٍ سوى لباكو شاي أو علبة كبريت وتقف أمامه شوطًا طويلًا تتدلَّل وتتلكَّأ، وعندما تعود إلى بيتها وتلقَى زوجها تعبَسُ في وجهه.*

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

يشُدُّني غضب الشيخ سطوحي..

أنا – تقريبًا – مرسال أبي في المشاوير الخفيفة، وكنتُ في طريقي إلى الموقف لشراء جريدة الأهرام كالعادة، ومعها – وبناءً على طلبه – مجلة الكواكب؛ فالوالد حريص على متابعة صور وأخبار أهل الفنّ خاصةً نجمات السينما الحسناوات، وكان الوقت يومها التاسعة صباحًا والبلدة خاوية؛ الكل في الغيطان وأغلب مَنْ في الشوارع إما نسوة أو صغار وعجائز، وألقَى الشيخ سطوحي أبو كف في مواجهتي، بعمامته وعصاه أُمّ عقفة.

شيخ الكُتَّاب الذي حفظتُ فيه بعضًا من القرآن الكريم وشيئًا من الحساب؛ الجمع والطَّرْح والقسمة وهذه الأشياء البسيطة، سنتان قضيتهما معه نلت فيهما ما يقرب من سبعين أو ثمانين نخسة من الملعونة أم عقفة هذه التي في يده، ويا سبحان اللـه على هذا الإنسان! كان جبَّارًا ولا يرحمنا إذا تلعثمنا أثناء تسميع الآيات التي كلَّفنا بها، وإن كان الكُتَّاب ليس كله عيوب، فإلى جوار القرآن الكريم والحساب تعلمنا الـحَذَر أيضًا وعرفنا أهميته في الحياة، فإذا كانت عصا هذا الشيخ الصعب ممدَّدة في حِجْره كنَّا نشعر بالأمان ولا مانع من غفوة سريعة، وعندما يرفعها ننشَط واليَقِظُ منَّا ينبِّه الغافل بزغدةٍ في جنبه، وتدور أعيننا مع العصا يمينًا ويسارًا كي لا نؤخَذ على غِرَّة، كنا نلعب معه لُعبة القط والفأر، ووالله كنا ننجح نحن الفئران ونتفادى عصاه، فعشرات المرات وهو يخيب ويفشل في الوصول بها إلينا؛ إذ كان المستهدَف بها يميل بأقصى سرعةٍ بعكس اتجاهها فتهبط على (الفاضي)، أو ربما على أكتافِ ولدٍ مسكينٍ بالجوار.

المهم أن سيِّدنا كان راجعًا من الموقف في هذا اليوم، العُبوس على وجهه وإلى جواره الرجل الطيب الشيخ تهامي (عريف الكُتَّاب)، ويبدو أنه التقى بضابط النقطة ولم يسفر اللقاء عن تحقيق الغرض الذي يشغله، وبسُخطٍ يحكي ويُشيح في وجه تهامي:

- ظابط إيه ده! ولا يدخل في ذمِّتي بكوزين دُرَة، لا. لا. الدنيا اتقلّ خيرها، لا عاد فيها دين ولا نخوة!

وبسبَّابته ينغز الشيخ تهامي في دماغه كي ينتبه له:

- سامعني يا تهامي..؟

فلم يكن يناديه بالشيخ تهامي، يناديه باسمه مباشرةً وأحيانًا (واد يا تهامي)، وليس الأمر من قَبيل التباسُط، ربما هذا بالنسبة إلى الأفاضل شيوخ الكتاتيب الأخرى أما الشيخ سطوحي فلا؛ إذ كان يشعر بأن تهامي في فهمه لمقاصد الشريعة وأسرار الفقه مجرد حشرة قياسًا عليه، ولا يحقُّ له التَّمَشْيُخ ولا بعد خمس عشرة سنة، رغم أن تهامي هذا متزوج وله من الأولاد أربعة ونبتتْ في لحيتهِ عشرون أو ثلاثون شعرة بيضاء.

ويستمر الشيخ سطوحي:

- أقولُّه الواد ابن فطّوم معلَّق على باب دكانه صورة واحدة سِتّ عريانة مَلْط، وهو ولا هو هنا! وإن الحكاية دي هتعمل حريقة في البلد وبرضه ولا هو هنا! أقول وأعيد وأقول وأعيد ويا سيِّدنا البيه ويا حضرة الظابط، ومفيش فايدة وآخر المَتمَّة يقولّي: شيل عكَّازك دا اللي إنت راكنه جنب الكرسي واتِّكِل على اللـه!

ويُسأسِئ بصوتٍ مرتفع ثم يُكمل:

- دا زيّ ما يكون كرَشْنِي يا واد يا تهامي، طَبْ واللـه واللـه بعقد الهاء لأشِدّ فيه تلغراف لوزير الداخلية.

وتهامي بأقصى ما فيه يداري ابتساماته:

- أمْرِنا للـه، وآديك عملت اللي عليك يا سيدنا.

- عملت اللي عليَّا! هو انت فاكرني هَسْكُت، أنا هَسِيب الوسخ ابن فطوم ده بس لحدّ بكره.

ويُشيح بيده مبديًا بعض السماحة:

- ويا سيدي بلاش بُكْره لحد بعد بكره، وإن مَسْمِعش الكلام وشال الصورة هيبقالِي معاه تصرف تاني.

وتُفلت قدمه من المداس فينحني عليه ويقف الشيخ تهامي وأنا الآخر، ويعلو صوته بعد أن استقام واقفًا:

- أنا حذَّرته وإن ماارتدعش أهيَّه.

ويرفع أم عقفة في الهواء على اعتبار أنها هي التي سوف تتعامل معه، وتهامي يقول له:

- يا سيِّدتا هدِّي خُلْقك وسيب الناس في حالها، ربنا يهديك..

- يهديني إيه يا طَور! دا أنا حافض كتاب اللـه والنهي عن المنكر دي شغلتي أبًا عن جدّ.

والشيخ تهامي يرد:

- أنا برضه اللي طور يا سيِّدنا؟!

وأنا يزداد بي الفضول لرؤية صورة المرأة العارية، فتركتهما ملتحمَيْن في هذا الجدال وطِرتُ إلى دكان زكريا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الدكان ليس مزدحمًا..

زبونة واحدة أمام زكريا، (نعناعة)، امرأة نُصّ نُصّ والغمز واللمز حولها، في الحقيقة هي حلوة لكن سيرتها البطَّالة جعلت الجادِّين من الرجال يعزفون عنها، كما كانت جلابيبها محبوكة حبكةً شديدة، أشياؤها كانت تبدو حتى وهي واقفة لا تتحرك، وإذا تحركت أو مالت وحبَّذا لو انثنت يزداد الوضوح..

وأنا وكما قلت من قبل، لم يكن رأسي يصل كاملًا إلى حافة البنك إلَّا إذا شببتُ على أصابع قدميَّ، لم أشِبَّ في هذا اليوم، لستُ مشغولًا بزكريا أو هذه النعناعة، ركَّزتُ في الصورة العارية فقط.

ملصَق دعائي لفيلم (صراع في النيل) حيث فنَّانتُنا الكبيرة هند رستم تقف بملابس خفيفة على إحدى المراكب الراسية على شطِّ الماء، وعمر الشريف يقف وراءها متحسِّسًا كتفيها، وفي الفراغ المتبقي من المُلْصَق رشدي أباظة يرمقهما بضيق.

مجرد صورة! لكنها في عرف الشيخ سطوحي رجسٌ من عمل الشيطان، وفتنة لعن اللـه مَنْ أوقدها..

يا سلام عليك يا عمّ زكريا!

أنت السبب في كل هذه الزوابع، فكل يوم تُتحفنا بشيءٍ جديدٍ وتوغر صدر سيدنا عليك..

فمنذ عدة أشهُر كان معلقًا على باب دكانك ملصق دعائي آخر لمشروب (كينا روماني الحديدية)[4] ، الذي يبثُّ الطاقة ويقوّي العضَل ويجعل مَن يتعاطاه فحلًا لا يُشقُّ له غبار؛ فسال لُعاب فتية البلدة على هذا المشروب والأسرار التي فيه، صدَّق العُبطاء ما ورد في الإعلان وطلبوا منك أن تأتيهم به..

وكانت لك كل يوم جمعة سفرية إلى البندر أو مصر، فأحضرتَ لهم ستَّ كراتين وبعتَ لهم الزجاجة (يا لتَّة العفاريت) بثلاثة أضعاف ثمنها، خطفوها منك خطفًا، طارت من الدكان في ست ساعات، وكلُّ مَن يشتريها ويتذوق السائل القاتم اللاذع الذي فيها يظنُّ أنه أصبح من أصحاب العضلات وفي العلاقة الحميمة لا يُبارَى، ويتحرش برفاقه أو حتى بزوجتهِ؛ ليُثبتَ لهم ولها أنه لا يقلُّ قوةً ولا شراسةً عن الملاكم الأمريكي الجبار (محمد علي كلاي) الذي كان صيته ذائعًا أيامها.

لم تكررها ثانيةً يا عمّ زكريا، بهدلك الشيخ سطوحي وحرَّض الآباء فنهروا أولادهم، ومنهم مَنْ جاءك الدكان وخلع لك المَدَاس وشتمك وسبَّك أنت وأباك وجدك.

ومرة جئتنا بعدَّة دِسَت من الجاتوه؛ فتدفق عليك البسطاء ممَّن لا يعرفون هذه الأشياء، ويسألونك: ما هذه يا زكريا، فتقول لهم:

- اسمها (نواعم) والحتَّة بنُص جنيه.

يتأملونها بدهشة ويأكلونها في قضمة واحدة، وأنت تبتسم يا لئيم فالقطعة اشتريتها في الجملة بعشـرة قروش، لم يتبقَّ سوى ثلاث قطَع استبقيتَها للغُنْدورة نعناعة، وطبعًا بـ ولا ملِّيم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وبقيتُ أنا واقفًا وهو لا يزال مع نعناعة، وأول ما قال لها:

- وإيه تاني يا عسل..

انتبهتُ لحرارة الكلام ولبثتُ صامتًا دون حركة كي لا أفضح السكون الذي أنا فيه وأنكشف لهما، فإلى الآن لم يرَني أو شعرتْ هي بوجودي..

وطفقتُ أسمع وأرى..

النظرات التي تبادلاها ليس فيها واحد على ألف من البراءة، كلها قلة أدب، أشبه بالتي تجري بين رجلٍ وامرأةٍ في الفراش، وأراه وهو يسلمها مشط الكبريت الذي طلبته وتنام أصابعه على كفِّ يدها، وبصوته الناعم كالحرير:

- أجيب بودرة للخدود..

- عندك منها؟

- عندي ونُصّ، بس دي مش للبيع.

- لأ.. اختشي عيب..

وتمد يدها وتأخذها منه:

- بس ربنا يستر وأخويا عباس ميشوفهاش، دا كان يقطَّعني حِتَت.

- أنا اللي عايز أقطَّعك حتت..

تهبط بعينيها ويضع هو يده فوق يدها من جديد وهي تجاريه، تفكُّ كبسولة الكُمّ فتمتد أصابعه لمنتصف الساعد..

ويلمح رجلًا مُقبلًا عليه؛ فيسحب يده بسرعة..

- عندك سجاير يا زكريا؟

- عنيَّه يا أبو حلمي.

قالها بربع تكشيرة على وجهه فقد قطع عليه الرجل لحظاتٍ سعيدةً قلما تجيء، والمدهش أني أنا الآخر تأفَّفتُ من أبي حلمي هذا، فهل هذا وقته!

وبعد أن انصرف تقول نعناعة:

- أنا ماشيه..

- على فين..؟

وتلمس أصابعه منْحَرَها متسلِّلةً إلى ثديها..

- لأ.. اختشي..

وتستدير منصرفةً فتراني ويراني هو الآخر، وكمَنْ لا يصدق:

- بسم اللـه الرحمن الرحيم! هو انت هنا يا نمس..

ويسأل:

- ومن إمتي؟

وأنا أبتسم وأقول له:

- عايز باكو شاي ماركة الشيخ الشَّرِّيب.

- الشيخ الشريب؟

- آه الشريب..

اشتريت باكو الشاي بفلوس الأهرام ومجلة الكواكب، وإلى البيت وأنا أفكر في سيناريو جديد أتعامل به مع أبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

الست فطوم امرأة شديدة، من النسوة ذوات العزم..

ومن أول ما طبَّت بلدتنا وزكريا أغلب الوقت فوق كتفها، لم يهبط ويتحرك بحرية إلَّا بعد أن بلغ السادسة..

جاءا وهو ابن سنتين وليس لهما مأوًى، كل ليلة تبيت في مطرح إلى أن استقرت في خرابة من الخرابات، تسحبه من فوق كتفها وتضعه في حِجْرها وهو لا يكفُّ عن الرَّنّ؛ يريد لعبةً يلعب بها، تناوله كِسرَة خبز فيعافها، بزَّازته القديمة، لا يُطيقُها ويكاد يتقيَّأ، تُلْقمه ثديها، الثَّدْي مجدب، انحاش عنها اللبن من أشهُر، وما الذي تفعله! هذا كل ما تقدر عليه، وتغدو حلمة الثدي هي اللعبة، يظل يلوكها بفمه ويكبش بطن الثدي بأصابعه إلى أن يدخل في النوم فتُربِّت على ظهره وتغطيه بطرحتها، تميل برأسها هي الأخرى وينعسان معًا.

رقَّ قلب أحد مُوسِري البلدة لحالها؛ سمح لها ببناء عُشَّة على أطراف أرضه، وأرضه هذه ولـحُسن حظها هي وولدها فيما بعد كانت على تخوم البلدة، لا يفصلها عنها سوى تُرْعة وقنطرة يعبُر عليها الناس، ومَن أعطاها مرتبةً ومن أعطاها مُخدَّةً أو لحافًا وأصبح لها بيتٌ يُغلق بابه عليها.

وابتسمت لها الدنيا، وإن كانت النسوة لم يرحمنها..

النسوة المجرمات ذوات السوابق في الخَبْص والنميمة، عُدَد الشر والفضول جعلتهنَّ يطِرْنَ إليها كسرب الطيور الذي ينطلق فجأةً من فوق شجرة ويحطُّ على البقعة التي عيونه عليها، وطفقن يسألنها: مَنْ تكون؟ وأيُّ ريحٍ قذفتها على بلدتهُنَّ؟ وهذا الولد الذي معها، هل صحيح ابنُها، أم مثلما يُقال؟

تستغرب من السؤال الأخير بالذات، وتسألهن عمَّن قال إنه ليس ابنها! وهُنَّ يتبادلن النظر ويقُلْن: سمعنا.. آه سمعنا.. وبالكذب يحاولن إيهامها بأنهن نسين اسم مَن قالت لهُنَّ، وهن لا سمعن ولا شيء من أصله..

نسوةٌ من نسل الأفاعي، كَنسْنَ بيوتهن وعلى السريع أعدَدْن لقمةً لأزواجهن وتفرَّغن للنبش والتسلية، يتفنَّنَ في سحبها في الكلام، فلم يكُنَّ يأتين لها مباشرةً، مرة من الشباك ومرة من تحت عقب الباب، وهي أشطر منهن، لفَّت ودارت وشافت المُرّ بعينيها وقصدهن لا يغيب عنها، يُرِدْن أن تنطق بكلمة فيضعن فوقها خمسين كلمة ويدُرن بها على البيوت، كَانت تلاعبهن، تجرجرهنَّ لسكَك بعيدة عمَا يقصدن وكلام في كلام ليبتعدن عنها، وعندما يتكاثرن عليها وتزداد الرذالة تسيل دمعةٌ من عينيها أو تقول:

- ربنا يستر على الغلابة، والدنيا سَلَف ودين..

لم تبُحْ بحكايتها أبدًا، ربما أفضت بها لزوجة الرجل المُوسِر الذي عطف عليها إذ كانت كثيرة التردد عليها، أقول ربما؛ فليست لديَّ معلومات مؤكَّدة عن هذه النقطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فعلت الست فطُّوم كل ما تستطيع لتوفر ما يقيم أودَها هي وابنها..

اشتغلت في البيوت، كنست ومسحت المنادر والدواوير وأمام العتبات وأشعلت الأفران والكوانين، حتى المراحيض نزحتها، فعلت كل ما تعاف عنه نسوة البيوت الكبيرة ذوات الأيادي الطريَّة، وكل هذا والولد لا يتزحزح من فوق كتفها؛ فإلى مَن تدعه..!

استحالة أن تتركه وحده في العشة، هل جُنَّت..!

سوف يموت؛ كلبٌ عَقُور ينهشه، ذئب يرفعه من رقبته ويجري به، أو تسوقه قدماه إلى حرف الرشَّاح فيسقط فيه، تخاف أيضًا لو وضعته بجوارها وهي تعمل، يكسر شيئًا أو تتأفَّف منه صاحبة البيت الذي تشتغل فيه، كانت حسيسةً وتخاف على مورد رزقها، وفي آخر النهار تعود به إلى عُشَّتها وفي كفِّها عشرة قروش أو ربع جنيه إذا كانت مَن تعمل عندها في هذا اليوم يدُها سخيَّة؛ غير أشياء أخرى تُعطَى لها؛ قطعة جُبن قَرِيش، بقايا طبيخ، عدة أرغفة إذا كان اليوم يوم خبيز، وقد تمتدُّ يدُها خلسةً إلى أحواض الزرع التي تجاور عُشَّتها، تلتقط حبَّة طماطم، كوز ذُرة، ثمار خيار أو فُلْفُل أخضر، ومَن يراها يتغاضى ويسامح؛ فالفعل وإن كان سرقةً إلا إنها سرقة تحرك النَّفْس وسَرْعان ما تتجاوز عنها الفطرة السليمة.

أربع سنوات وزكريا فوق كتفها، والناس تتعجب وهي تراه وتراها على هذه الحالة، رأسه يضاهي رأسها وقدماه تصلان إلى منتصف بطنها، ارتاحت بعد أن دخل المدرسة، كل يوم تذهب وتعود به وهو سائرٌ على قدميه، أول يوم فقط هو الذي أتعبها فيه؛ ارتدى المريلة وكالعادة حاول امتطاء كتفها لتحمله إلى المدرسة، زغدته في ظهره عدَّة زغدات حتى رضخ ومشى بجوارها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن تنفق من النقود التي تتحصَّل عليها إلَّا بالكاد..

القرش فوق القرش إلى أن صار في يدها مائة جنيه، وحصل زكريا على الشهادة الابتدائية ثم أولى وثانية إعدادي وأخرجته بعدها من المدرسة، توقفت هي الأخرى عن الخدمة في البيوت، صارت تاجرةً، والتجارة – وبقصدٍ

منها – قصـرتها على أغلب خَلْق اللـه، على: سعداوي ومتولي وشندويلي وحجازي وأبو المكارم الذين يعودون آخر النهار من الغيطان مهدودي الحيل هَلْكَى، ويتوقفون لشراء شيءٍ حلو يستطعمون به الدنيا أو تفاهةٍ من التفاهات يدخلون بها على عيالهم.

تعرف أن جيوبهم خاوية، أقصى ما فيها ثلاثة قروش أو أربعة؛ فجعلت تجارتها بالمقايضة..

تحصَّلت على طاولة بالتقسيط من المقدِّس لبيب النجار ووضعتها على أول القنطرة التي تفصل الغيطان عن البلدة، وكوَّمت فوقها كلَّ ما يخلبُ بصر مَن هم من نوعية زبائنها؛ سجاير هوليوود[5] وونجز وكوتاريللي ومعدن ممتاز وتُباع (بالفَرْط) السيجارتان بكوز دُرة، هذه هي التسعيرة التي وضعتها، وحلوى من نوع النُّوفِـي والكراملَّة والنُّوجا ونُبَّوت الغفير وكلها من أردأ الأنواع، وزمامير ومصَّاصات ومفرقعات خفيفة كالبُمْب وغيره مما يُجنُّ به الصغار، وأمشاط وبِنَس وفلَّايات وعطر من نوع (كُناسة العطَّار)؛ ليكون للنسوة هن الأخريات نصيبٌ مما تتاجر فيه.

وكان الواحد من زبائنها عند رجوعه من الغيط يقف أمامها بحماره وجاموسته ويختار، والمقابلُ مما هو محمولٌ فوق دابَّته، عدَّة كيزان من الذُّرة، أحفان قمح أو شعير، خمس أو ست كبشات من ثمار الكوسة أو البازلَّاء أو ربما بطيخة أو شمَّامة إذا كان الموسم موسمها.

تجمع هي هذه الأصناف وتكوِّمها كل نوع على حِدَة، ومع البكور وقبل أن تبدأ الحركة أمام طاولتها تلفُّ بها على البيوت خاصةً بيوت أصحاب الحِرَف ممَّن ليس لهم أرضٌ ولا زراعة: الست نرجس مثلًا زوج المقدِّس لبيب حيث كانت تفتح لها بابها على مصراعيه وتشتري وتعطيها ما تطلب وفوقه خمسة قروش أو عشرة، وزوج الدريني، وغيرهن: زوج برسوم التومرجي وزوج الإسكافي والحدَّاد وأبو العزم القصَّاب، وكل من ليس من شيَمها المشي في الشوارع ولسوء الحال ليست لها خادمة تخدمها، الست فَطوم كانت تكفيها، تزيحُ مشنَّتها جانبًا وتغسل لها المواعين أو تقضي لها طلبًا من السوق وتخرج مجبورةً وفي سيَّالتها أكثر ممَّا كانت تتوقع.

تطوَّرت الأمور بعد ذلك في مسارها الصحيح..

فالدنيا لا تزال سخيَّة معها وتزيد من الابتسام؛ أصبحت الطاولة طاولتين وأتت بالغالي والجديد، بواكي شاي من كل الأصناف، وأقماع سكر مرصوصة بجوارها في كراتين، وحلاوة طحينية وعُلب سلمون وسردين، أنشأت بقالة من لا شيء وهكذا في الهواء، فلا دكان ترصُّ فيه بضاعتها ولا باب يُغلق عليها،

وأصبحت المقايضة في القليل القليل فالبيع والشراء صار بالفلوس، واشتدَّ عود زكريا وكل جمعة له سفريَّة يشتري فيها البضاعة بالجملة.

وكثُر الزبائن وتحسَّنت الأحوال، وعامًا فعام صار زكريا رجلًا وشارب لطيف وطاقيَّة بيضاء وساعة في يده اليمنى وليس في اليد اليُسرى، ونظرات تفهمها النسوة، والست فطُّوم أصابها العطب وركبتها الأمراض، هو يقف ويبيع وهي مرتاحة فوق حصيرة إلى جواره وتزوده من خبرتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

تلحظ فطُّوم نظرات ابنها التي تلاحق النسوة..

وترغب في تزويجه، لكن بمَنْ؟

لا تستطيع الاقتراب أو حتى التفكير في بنت من بنات البيوت الكبيرة، وإلَّا كسروا رِجْلها وكان آخر يوم في عمرها..

ولا حتى متوسطو الحال أصحاب الفدَّانين والثلاثة؛ فلا زالت في أنوفهم شمخة أو ربما لديهم تطلُّعات، وقد يكون بعضُهم إن لم يكُنْ جُلُّهم يودُّ لو تصاهر مع فطاحل البلدة والجلوس معهم في الدواوير كتفًا بكتفٍ والنسوة تختلط بالنسوة ويصِرْن لتَّة واحدة، لا الهبوط إلى القاع مع زكريا وأمثاله، وقطعًا سوف يُجرون مقارناتٍ بينهم وبينه وأكيد هو الخاسر فيها، فمَن زكريا هذا قياسًا إلى الحاجِّ عبادة أو الشيخ عبد الرءُوف أو أبو وردة مثلًا، ابنه موظَّف بالجمعية الزراعية وعنده في الدار جَمل وجاموسة وثلاث معيز..

مَنْ هذا الفَسْل؟

عُشَّة ومُخدَّة ولحاف، ومَوْرِد الرزق بيع وشراء وتنطيط على السِّكَك، ناهيك عن أن خدمة أُمِّه في البيوت لا تزال ماثلةً في الذاكرة..

احترمت فطُّوم نفسَها وركزت مساعيَها على مَن حَسِبَت أنهم في المقدور، زبائنها الهلْكَى الذين يتعاملون معها بأحفان القمح وأكواز الذُّرة؛ غير أنها شعرت بأن الـحُرْمانية قد تركبها لو لم تشاور ابنها أولًا، فالعروس سوف تكون عروسَه ولا بدَّ أن تكون له كلمة، وعندما سألته وقال لها: نعناعة، بصقت في وجهه:

- نعناعة يابْن الكلب!

وتهجَّمت عليه بما في قدميها، وهو كُلُّ هَمِّه حماية رأسه من فردة المَدَاس التي في يدها لا إقناعها بأسبابه، وعندما جاء أوان الغداء ونادت عليه أجابها بصوتٍ مُتكدِّر:

- مليش نِفْس..

- عنَّك ما طفحت، قال نعناعة قال! وحِسَّك عينك أشوفها تطُبّ نواحينا، تحرَّج عليها وإلَّا هغطِّسك إنت وهيَّه في الرَّشَّاح.

يومان ولم يعُد يتحمل غضب أمِّه، وعندما اقترب منها أفهمته بالواضح الصريح أن نعناعة لا تصلح له لكيت وكيت وكيت، وأنها سوف تخطبُ له الفتاةَ التي تليق وتتناسب ظروفُه مع ظروفها، وتفهَّم زكريا أيضًا أن هناك سقفًا لا يمكن تجاوزه عند الاختيار، وارتدت هي جلبابها القطيفة الأسود والكردان الصفيح وشرعت في النقاوة والخِطْبَة.

كلَّ صباح تَسْلِت نفسَها ساعةً من البيع والشراء والمُناهدَة وتذهب إلى أُمِّ الصبيَّة التي عيناها عليها، وتطرق الباب وفي ظنِّها أن طلبها مجابٌ والفرحةُ سوف تعمُّ البيتَ بقدومها..

والبيت محلُّ الكلام حالته لا تسُـرُّ، تقريبًا في الحضيض، الجدران بطوب نيِّئ باشَ بعضُه من جرَّاء المطر وندى الفجر وعِرْقا خشب بالكاد في السقف ونَفَشَا من الرطوبة، وهو ذاته في حارة سخيفة والعيال الذين فيها لا يردعهم رادع، عرايا من أسفل ويتبوَّلون جهارًا نهارًا أمام عتبات البيوت، ورغم كل هذا تنظر إليها أُمُّ البنت من أعلى إلى أسفل ثم بالعكس..

لا تدعوها للجلوس بالداخل كسائر النسوة اللائي يزُرْنها، مقدار أُمّ زكريا عندها لا يتعدَّى الجلوس في بَحْرايَة الباب التي تطلُّ على الحارة، حيث العُفارُ وكلابٌ تنبح وقد تتعارك، وأرتالٌ من الحَمير والجواميس تمضي أمامها وقد تتغوَّط..

تجلسان، وأمُّ البنت الضَجَر في عينيها وإن حاولت أن تخفيه..

تخلعُ كُلُّ واحدة منهما مَدَاسها وتنفضه نفضتين في الهواء وتتربَّعان قُبالةَ بعضهما البعض، وفطُّوم كلمة من اليمين وكلمة من الشمال ثم خطوة للأمام وتقول ما عندها، وأمُّ البنت ومن البداية المسألة محسومة لديها وتعرف الغرض من الزيارة، ليست أول واحدة يُدقُّ على بابها، تعلم أن فطُّوم سبق وأن ذهبت إلى أُمِّ عليش والست بهانـة والحـاجَّـة وداد وكُـلهن صرفنها بالحسنى..

تفعل مثلهُنَّ..

وبالأدب والذوق ودون إحراجات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلَّت الست فطُّوم من هذه المشاوير وهذه الإهانات..

جلست ساهمةً تفكر في حلٍّ لهذه المعضلة، إلى أن لاحت أمامها (حسنات) بنت المرزوقي..

حسنات! أين كنتِ غائبةً عني يا بنت الناس، وتظهرين الآن! يا سبحان اللـه ففعلًا ليس بعد الضيق إلَّا الفرج..

فحسنات من ضمن الصبايا اللائي يأتين من البلدة ويتعاملن معها هي وزكريا، تجيءُ بصحبة اثنتين من صاحباتها، لا تتقدمهن؛ تستحي، دائمًا على بُعد خطوة وراءهن ولا ترفع وجهها في وجه أحد، فإذا هي مؤدَّبة خَجُول مثلما خمنت الست فطوم!

وتتذكَّر فطوم عندما كانت تميل الفتاتان اللتان معها على الطـاولة والمعروضات وتتهامسان وتضحكان ولا تشتريان إلَّا بعد مُناهدةٍ وفِصال، عقد لولي مضروب، غويشة فالصُو، حُقّ قازلين، وهي لا شيء من كل هذا، كل ما تريده قرطاس من اللّبّ وكانت تأتي على ربعه قبل أن تنصرف؛ فهي ليست خَجُولًا فقط بل ومدبِّرة لا يشغلها متاع الدنيا، وهذه نقطة ثانية في صالحها ويا سعدُه يا هَناه مَن يتزوجها!

وفوق هذا يتيمة، فارقت أُمُّها الحياةَ وهي صغيرةٌ ووراءها أبوها، وهذا أفضل فلن يكون لابني زكريا حَماةٌ تنغِّص عليه عيشته، يا سلام! بُنَيَّة فيها كل المواصفات، وتعيش المسكينة الآن مع أخيها (رمضان) هو وزوجه وعياله في البيت الذي تركه لهما أبوهما غير قطعة أرض زراعية فدَّان وسبعة قراريط، وكثيرًا ما سمعت فطوم عن الغُلْب الذي تعيش فيه هذه البُنَيَّة؛ فهي تقريبًا خادمةٌ وليس أختٌ والمشوار الذي تقوم به كل عدَّة أيام لشـراء قرطاس اللّبّ هو الترفيه الوحيد في حياتها..

وقليلة البخت؛ فمع أول هذا الشتاء بدأت عامها التاسع والعشـرين دون أن يطلبها أحدٌ للزواج، عجائز البلدة اللعينات هُنَّ مَن أفسدن سُمْعتها، مرةً يقُلن: عبيطة، ومرةً (فِشِلَّة)، صحيح هي سمينة لكن ليس لهذا الحدّ، وشقيقها رمضان – لعنة اللـه عليه هو وأمثاله – يراها كالهَمِّ على قلبه ويتمنى لو ارتاح منها، والحسبة عنده حسبة اقتصادية! فالبيت ثلاثة مطارح لها منها مطرَح ويودُّ لو أخلته للعيال، ما شاء اللـه سبعة، ثلاثة منهم كبار وينامون في أي مكان، في الحوش، على السطح، خلف عتبة الباب، والصغار اثنان معه هو وزوجه فوق السرير واثنان اللـه أعلم أين!

ويسألُ نفسَه: يا تُرَى لو جهزتها للزواج فبِكَمْ؟

ويجيب: المهر الذي سيدفعه العريس أضع عليه سبعين جنيهًا.

ويصمتُ مُراجعًا نفسَه: لا. لا. خمسون أو حتى أربعون جنيهًا كفاية ومع ألف سلامة، ولا بُدَّ أن توقِّع لي على ورقة تنازُل عن حصتها في الأرض أو في البيت على الأقل..

لكن أين العريس؟

فالمزغودة على حافة العُنُوسة، والمصيبة فوق رأسي أنا لو لم تتزوج، أليس في بلدتنا بنت الكلب هذه رجلٌ (معيوب) ظروفه توافق ظروفها، وساعتها سوف أتساهل، يظهر هو وأنا واللـه واللـه لأتساهل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل هذه المعلومات جمعتها ودوَّرتها الست فطُّوم في رأسها..

صحيح أنها أكبر من زكريا بخمس سنوات على الأقل، لكن ماذا تفعل! هذا هو الموجود..

وتقدمت لهذا الرمضان وزيارة والثانية ووافق، تَبَعْدَد أوَّلَ الأمر وطلب في حسنات الكثير والست فطوم المُحنَكة بنت السوق تلاعبه، ولمَّا شعر بأنها لن تدفع مِلِّيمًا واحدًا فوق المَهْر الذي عرضته وأن الجوازة قد تطير لو أصرَّ توقف عن الجدال، وزُفَّت حسنات إلى زكريا، لم يُزفَّا إلى العُشَّة فالشملولة أُمُّه كانت تُعدُّ العُدَّة لهذا اليوم، والمائة جنيه التي كانت معها صارت خمسمائة، اشترت بها بيتًا في كعب البلدة واستأجرت دُكَّانًا نقلت إليه تجارتها.

وكانت مفاجأة ليلة الدُّخْلة أن العروسة مصابة بداء الفيل؛ الساق اليمنى وإلى آخر الفَخِذ ضعف الجانب الأيسر..

أربكه هذا المنظر، أحبطه أيضًا، وللمرة الأولى في حياته – وفي سرِّه طبعًا – يسبُّ أمه هي وأباها وجدها وكل صنفها، وبتصرُّفٍ غريزيّ ابتعد عن حسنات؛ عافها أول وثاني وثالث ليلة ثم تَعوَّد، وعدَّة أعوام وأنجبت له ولدَهمَا الوحيد (خيري)، جاءهما بصعوبة؛ فثلاث أو أربع مرَّات وهي تحمل ويخيب الحمل.

ثم تدهور حالُها..

ازدادت سمنتُها بطريقةٍ بشعة؛ بلغت ثلاثة قناطير..

وكل هذا على دماغ زكريا؛ فقد كانوا يسحبونها إذا أرادت التحرُّك، وإذا وقعت على الأرض هذه هي الكارثة؛ يتكاتفون حولها حتى يرفعوها وأحيانًا كانوا يستدعون بعض الجارات للمساعدة، وفي الفراش كان الوضع مضحكًا؛ برغوثٌ يواقعُ دجاجة، وبعد فشلٍ في فشلٍ ومحاولاتٍ خائبة أغلق بابَه حيالَ هذه المسألة، حاشَ نفسه عنها نهائيًّا وتقبَّلت هي ذلك بارتياح، فما هذا العبث الذي يعبثه!

أفرغ عواطفه مع النسوة اللائي يتردَّدن على الدُّكَّان، نعناعة وأمثالها، وعندما تستبدُّ به الشهوةُ يُضطر إلى حسنات فتفهم وتعذر، ترفع جلبابها وتدَعُه

وشأنَه، فلا تأثّر ولا مشاركة ولا أي شيء يصل لها، وبعد أن يفرَغ تعيد فَرْد الجلباب على جسدها وتنام، أحيانًا لم تكن تشعر بأنه انتهى وتظل عاريةً، كان يغطيها وهو يلعنُ خاشَها وخاشَ اليوم الذي تزوَّجها فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

الجديد الذي طرأ أنها لم تعُد تتحمَّم..

أنفه كان يلتقطُ رائحتها من أوَّل ما يدخل من باب البيت، وتزدادُ كلَّما اقترب من المكان الذي توجد به..

يعرف أن هذا يحدث رغمًا عنها بعد أن انبطَّت مرةً في طسْت الحمَّام ولم تستطع الوقوف، وأتت أُمَّة لا إله إلَّا اللـه يومها تدعمها في هذه الورطة.. لكن ما ذنبي أنا، غرفة النوم التي جعلوها للنوم والراحة صارت كالمرحاض!

ومن أول ما لفت نظرها حاولت إرضاءه، طلبت المساعدة من جاراتها، اثنتان وأحيانًا ثلاثة منهن كُنَّ يجئن لها صباحَ كل يوم جمعة، وواحدة من قريبات حسنات تنتظرهن بصفيحة ماء ساخنة وليفة وصابونة وكوز، يتجمَّعن حولها ويَقُمن بتشطيفها وهي في السرير، من القدم حتى مفصل الرُّكبة ثم يشمِّرن ساعديها وبالمثل حتى المرفق ويختتمن بالوجه وإلى ما خلف الأذنين، يتكاتفن عليها بعد ذلك ويجردنها من ثيابها ويستبدلن بها أخرى نظيفة.

وهذا هو الحمَّام..

أما رائحة العرق التي تتراكم يومًا بعد يوم على بقية الجسد خاصةً أجزاءَه المهمة؛ فهذه أمور تخصُّ زكريا..

وأفتين لها بأنهن لا يُرِدن إلا المصلحة، ولو تهوَّرت وطلبت منهن أكثر مما يفعلن فهي المسئولة عن نفسها: فأنت مريضة يا بنت الناس ومرفوع عنك الحساب والمُساءَلة، ومَن لا يعجبه يضرب رأسه في الحائط.

ويقصدن بذلك زكريا، وإن كان من بينهن مَن هي غلبانة وتقول هذا من قلبها وخوفًا على حسنات، أما مَن كُنَّ من الصنف الأعوج وخايَلنَه من قبل وخابت ظُنونهُنَّ فيه، فهذا هو الانتقام..

الجديد الآخر أنه بعد مرة من مرَّات الاستحمام هذه تاقت نفسه إليها، قال: أجرّب حظي وأغطس فيها وأمري إلى اللـه، وما إن اقترب حتى دفعته بيدها، رضي بها ولم ترضَ به؛ فغضب لكرامته وترك لها الغرفة، جمع جلابيبه وغياراته وطواقيه البِيض وكل ما يخصه من متاع وأقام في غرفة الخَزِين، فالبيت كله غرفتان واحدة له هو وحسنات والثانية للمحروس ابنه خيري، ثم غرفة الخزين هذه وصالة وحُوش صغير تسـرح فيه إوزَّة وعدة بطَّات.

لم يشأ الاستيلاء على غرفة خيري، الولد تخين مثل أمِّه ولن يتحمَّلهما السـرير معًا، ناهيك عن أن السرير ذاته لا يساوي شيئًا في عالم الأثاث؛ قوائمُه ضعيفة والمُلَّة ضعيفة وهو كله ضعيف في ضعيف، فما المتوقَّع من سرير جهَّز به رمضان أخته حسنات!

زكريا كان يتصـرف، ينام على الحرف، يهبط إلى الأرض ويفرش لحافًا أو مرتبةً ويتمدَّد، أو إلى كنبة الصالة وينام، أما الولد فقليل الحيلة وفي الوزن ضِعْف وزن أبيه، وَلَد مبروك، شحم ولحم والجلد طيَّات طيات ولا يزال في الثالثة عشرة!

وظلَّ زكريا متماسكًا، لا سرحت عيناه وراء جارةٍ أو غامَرَ مع واحدةٍ من المستعدَّات، وتعاملَ بصرامةٍ مع قريبة حسنات التي تخدمهم في البيت؛ امرأة انتهازية، وحيزبون، خمسٌ وخمسون سنةً ولا تزال مشغولةً بهذه المسائل، شعرت بما يعاني منه وعرضت نفسها عليه، أرادت أن تكون البديل، زجرها من أوَّل محاولةٍ وهو يقول في نفسه: ملعون أبوكِ، أصوم أصوم والإفطار فحل بصل وحزمة كُرَّات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بَثَّ شكواه لأُمِّه..

وشفعها باقتراح يحلُّ له هذه المشكلة، أن تختار له عروسًا جديدة واستحلفها باللـه أن تُحسن الاختيار هذه المرَّة.

وهي تحذِّر:

- إنت عايز تخرب بيتك بإيدك وننكرشوا من البلد، اصبر لحد ربنا ما يعدِّلها.

وهو يجادل:

- دا حتى الشرع ما يرضاش بكده.

- شَرْع مين يا غزال! وهُمَّا أهل حسنات يعرفوا الشَّرْع.

تضيق الدنيا في وجهه:

- يعني أعمل إيه، أستنَّى لحد ما تموت..!

أومأت له بأن هذه نِعمَ الفكرة، ولا حلَّ سواها..

إيماءتها لم تعجبه غير أنه لم يَسْتهِن بها، ذكَّرته بدكانه وتجارته التي شرب الصديد حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن..

لوَّحت له أيضًا بطيف رمضان أخي حسنات، بشاربه وعصاه وأولاده الذكور الكبار..

شاربٌ فظيعٌ! يضاهي شارب (أبو جهل) أو (أبو لهب) أو هذه الأشكال المفترية، فرمضان هذا لم يأخذ من الشهر الفضيل سوى الاسم فقط، أما السريرة والفعل فأحد كفَّار قريش وأولاده تقريبًا بهائم، وكونهم يلوحون في خاطره على الفور مع تَحسُّبات الست فَطُّوم، فلا معنى لهذا سوى أنهم سوف يكونون ظهيرًا لحسنات وقت الشدَّة..

أما هو، فمَن له؟

أُمُّه فطوم التي لا تكفُّ عن السُّعال وتتوه أحيانًا في الكلام..

أم الفَسْل الصغير خيري الذي لو نبحَ كلبٌ في وجهه لفعلها على نفسه! وحسنات – لو فعلها وتزوَّج – لن ترحمه؛ عشرون جارةً من الجارات قليلات الأدب سوف يساندنها، ويقفن له أمام الأبواب كلما دخل أو خرج..

وما أدراك والنسوة، يُبهْدلنَ العنتيل..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استعاض عن مسألة الزواج بعالَمٍ افتراضيّ صمَّمه لنفسه..

وبدأ في اللَّعِب..

هو فريقٌ والنسوة اللائي يتردَّدن عليه في الدكان هُنَّ الفريق المقابل، ومن أول النهار وإلى أن يغلق الدكان وحالُه حالُ المراهقين؛ ابتسامة، كلمة استحسان، لمسة وكأنها بغير قصد وإن امتدت الحبال تكُن بقصد، وباكو الشاي هذا والذي سعره كورقة البوستة لا مانع من أن يُقلِّل من ثمنه قرشًا أو (تعريفة)[6] ، وحبّة الكراملة أو كبْشَة الملبّس هذه فوق الحساب.

وعندما يأتي الليل ويخلو إلى نفسه في غرفة الخَزِين، يدخلُ في فضاءٍ هو الساحر فيه والمسحور، دنيا الخيال والإمتاع حيث لا نيابة ولا بوليس ولا أحد يقول إنه شهد أو حتى شاف، يستعيدُ ما حدث معه في الدكان والخيال الحلو اللذيذ يحذف ويُضيف ويُجري الحوارات، يُجرِّد هذه من ثيابها والثانية يُنْطقها بكلام لم يُقَلْ وإيحاءات، أما هذه فلا صبرَ على ما تقول والفعل هو خير الإجابات، وعندما يغلبه النوم ينسابُ منه إكسير الحياة كالأولاد الصغار.

الأمر بالنسبة إليه كان أشبه باللعبة وظنَّ أنها سوف تُغنيه عن الحرام، غير أنها لعبة أشبه بالقِمَار الذي كما فيه المكسب فيه أيضًا الخسارة وخراب البيوت.

ووقف على حافّة بئرٍ غويطة، فكّر في أن يغزوَ إحدى هؤلاء النسوة..قلّبهن في رأسه، كلُّهن صبايا ونسوة متزوجات، والغلطة مع إحداهنَّ فيها قَطْع رقبة..

استبعدهن..

نعناعة هي التي اصطفاها من بينهنَّ؛ سيرتُها عليها علاماتُ استفهامٍ وهذا شيءٌ محمودٌ ويخفِّف عنه الوطأةَ إذا انكشف ما بينهما، أخوها (عباس) هو اللغز، فما رِدَّة فعله إذا وقع الخَطْب؟

مجرد أجير، يكرُونَه باليوم، يومان أو ثلاثة يعمل وباقي الأسبوع متعطِّلٌ يتنطَّع في الشوارع..

ولا يُعرف له وجهٌ من ظَهر، هل هو عبيط، ناصح، غشيم، ليس له (كتالوج)، رآه مرةً في عَرْكَة وبنُّبوته كاد أن يُطيحَ بثلاثةٍ في مواجهته، وفي مرةٍ ثانيةٍ رأى عيالًا تزفُّه لفعلةٍ فعلها، ومنهم مَن ينخسُه في ظهره أو بطنه ويولِّي هاربًا وهو كالأبله وعاجز عن التصرف.

أخيرًا تجاوزه وبدأ مع نعناعة، ولسوء حظِّه انكشف أمره وانفضح في البلدة كلها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

وهَا أنَا تجاوزتُ الثانية عشرة بأشْهُر، ولا أزال شديد التقلُّب..

فما إن رأيتُ ريحانةَ (زوج عدلى) من جديدٍ حتى تحوَّلتْ دفَّتي إليها بالكامل، أهملتُ زكريا وأمه فطوم والدرينى وولده صابر وكل ما كان يشغلُني من قبل، وانجذبتُ إليها مثلما ينجذبُ الطرفُ السالب إلى حَجَر المغناطيس..

جاءت تزورنا، طرقت علينا الباب ونعمات هي التي التقتها وعادت وعلى وجهها علامات الدهشة:

- دي الست النصرانيَّة!

تُسهِّم أمي لحظةً ونعمات تلاحقها:

- أدخَّلها ولَّا أقولَّها إنك مش هنا؟

- نصرانية مين يا بنت؟

- مِرات المعلم عدلي.

- ما تقولي كده من الصبح.

وتلكزها:

- وبعدين أنا مش منبِّهة عليكي متنطقيش الكلمة دي تاني.

- وهو أنا قلت إيه، مش هُمَّا برضه نصارى!

- يابِتّ يامُّ عقل تخين هُمَّا بيزعلوا من الكلمة دي، فاكره لمَّا كسفتينا مع (الست المستحية) وآهي خدت على خاطرها يوميها.

أمي بقولها: الست المستحيَّة، كانت تقصد المقدِّسة نرجس زوج المعلم لبيب النجَّار؛ فهذه المرأة كانت شديدة الحياء ليس بطريقة لافتة بل مرعبة، وكانت النسوة في ثرثرتهن الفارغة يقُلْن: إنهن حتى لو دخلن عليها فجأةً عمرهن ما رأينها بجلباب بنصف كُمّ أو لمحنَ شعرةً من شعراتها، الطرحة ملفوفة حول رأسها وذيل الجلباب يتعدَّى مُشْط الرِّجل والأكمام على الدوام بزراير أو كباسين مغلقة، وسواء كنَّا في الشتاء أو في الـحَرّ والصيف والرَّمْتة.

وتلحظ هذه التي تتكلم من بينهن حالة التآزُر والتأكيد التي تنتابُ إحدى المستمعات، وتستمعُ باهتمام للتعليق الذي تقوله:

- آه ياختي بتستحي، دا حتى الشراب مبتقلعوش من رجليها..

وتتدخل إحدى المندهشات مما يُحكى:

- دي على كده تبقى مآمنة باللـه وعارفة ربنا، أُمَّال بيقولوا...

ولا تكمل، تُسأسئ ضجرةً من هؤلاء اللائي يقُلْن لها كذا وكذا عليها، والمرأة التي تحكي تلاحقها:

- معلوم مآمنة باللـه، دا كل اللي ناقصها إنها تصلِّي وتصوم زيِّنا.

- ومين عارف! ما يمكن...

- جايز واللـه! ما فيه ناس بتدخل الإسلام في السرّ ولا حدّ يدرَى..

لم تكن تخلو هذه الجلسات أيضًا من إبليسة من الإبليسات، تغمز بعينها وتتساءَل عن الحال الذي تكون فيه المقدِّسة عندما يداعبها المعلم لبيب في الفِراش، غير أن الجالسات كُنَّ يوبِّخنها، فالست نرجس كالأيقونة في أعينهن ولا يقبلن أي كلام أو تلميح ماسخ يُقال عليها على سبيل التسلية، ويومَ أن تكعبلت على سلالم بيتها وانشرخت ساقها عشرون امرأةٍ على الأقل كُنَّ يزُرْنها كل يوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وتأتي نعمات بريحانة من الباب الخارجي..

كانت تحمل ابنها وأول ما رأتني منحتني قُبلَةً على جبيني، تلقَّيتُها بارتياح ولو كنت أستطيع لردَدْتُها لها على وجنتَيْها، وقامت أمي واقفةً لها على غير عادتها فهي لا تتحرك أبدًا من مطرحها إلَّا لمَن هنَّ أكبر منها سِنًّا، ويغلبها الإعجابُ بحلاوة ريحانة:

- بسم اللـه ما شاء اللـه! ربنا يحرسك من العين يا بنتي، اتفضلي اتفضلي..

فتشرع في الجلوس وهي تُعرِّف أمي باسم ابنها، قالت لها ما سبق أن قالته لي:

- ابني إبراهيم وبدلَّعه وأقولُّه يا برهومة.

وبدأت أختي ياسمين في الانتباه، رمقته بحذَر، هبط هو الآخر متجهًا إليها ولحظات واندمجا، يَحبُوَان جيئةً وذهابًا أمامنا وضحكاتهما لا تنقطع، ثم تسلَّلت ياسمين زاحفةً صوب طلمبة الماء وهو في ذيلها.

وتسأل أمي ريحانة عن أحوالهم هنا، فتجيب بأنهم بخير والحمد للـه..

وعن المعلم لبيب النجار بوصفه أكبر رأس في أقباط بلدتنا: هل يودّهم ويرعاهم؟

- خالتي نرجس مراته أحسن منه ألف مرة، هو مهياص ومصلحته نمرة واحد.

وأتزحزح أنا خفيفًا حتى أصل إلى ريحانة، رُكبتي كادت تلامس ركبتها، وأمي تلحظ وتزجرني بنظرة شديدة كي أبتعد، وريحانة لا تشعر بلُغة العيون هذه وتكمل كلامها:

- من صنف الرجالة مفيش غير برسومة اللي بيودِّنا، ولما بنقع في ضيقة هو لوحده اللي بيجري علينا.

تُقطِّب أمي حاجبيها متسائلةً:

- برسومة! برسومة مين؟

نعمات هي التي تسبق بالإجابة:

- برسومة يا حاجَّة الراجل أبو رِجْل مش عارفة مالها..

وتضحك:

- الراجل اللي بيتحنجل وهو ماشي، التمرجي بتاع الوحدة الصحية يا حاجَّة وطول النهار ماسِك الحقنة ودايرٍ يشَكْشِك في مخاليق ربنا.

تشعر ريحانة بالحرَج وأمي بالضيق وتلتفت حيث تجلس نعمات، تجدها متربِّعةً وأمامها سطرٌ من المواعين تدعك فيها، تقول لها وبما يشبه النهر:

- نعمات خلِّيكي في حالك وسيبِك منَّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ريحانة ساذَجة نوعًا ما..

فرغم أنها أول جلسة لها مع أمي إلا إنها لم تُخفِ شيئًا، حكَتْ لنا عن نُدرة الرزق في بلدتهم القديمة والبلاد المجاورة والتي دفعتهم إلى الرحيل إلينا:

- عمّ بشارة أبو عدلي وفهيم كل اللي كان حيلته أربع قراريط، ولمَّا اتوفَّى بعنا البيت وحتّة الأرض وآدينا جينا، خالتي دميانة هيَّه اللي كانت معصلجة بس هُمَّا غصبوا عليها.

- حماتك..

تبتسم ريحانة:

- حماة حماتي، ويا عيني مش طايقة العيشة هنا.

- وليه، دي الدنيا هادية هنا والناس في حالها.

- أنا معاكي بس دي عاملة زي الشجرة اللي عجِّزت وانهدّ حيلها ويدوبك متصلِّبة في مطرحها، ولو انقلعت واندقّت في أرض تانية عمرها ما تنفع.

وبإشاحة خفيفة:

- دي لا عايزة تقعد مع حدّ ولا حتى عايزانا نفتح الباب للسنَّات اللي جايين يطلّوا علينا، يا دوب تاكل وتشرب وأول ما الشمس تغيب تشدّ الغطا عليها وتنام.

وتأتينا ياسمين حابيةً وتبدأ في الزَّنّ؛ تلتقطها أمي وتضمها إلى صدرها وأنفاسها تختلط بأنفاسها حتى استكانت وشرعت في النوم، فتشير إليَّ أمي بأن أحملها برفق وأضعها في الفراش، تنتقل العدوى إلى إبراهيم يبدأ في الزَّنّ هو الآخر، وريحانة تسأل أمي عن لحسة عسل تشغله بها بعد أن شحَّ اللبن من ثديها:

- يدوبك يا خالتي رضعة الصبح وواحدة تانية العصر، وبعد كده إن نزل اللبن آهو نقطة ولَّا اتنين.

وأمي وعيناها على إبراهيم:

- يا عيني يابني!

- وآهو بكمِّل بلحسة عسل، شوية كراوية ولَّا ميَه بسكر.

- لا حول ولا قوة إلا باللـه! سمِّي سمي كده وهاتيه.

وأخذته أمي في حِجْرها ومدَّت له ثديها، عافه أول الأمر وشرع في البكاء، بضغطةٍ منها تقبَّله وبعد أن شبع رفع رأسَه ليتعرَّف عليها، وريحانة تتأملهما بفرحة وأمي تقول لها وبما يشبه التكليف:

- كل يوم مع صلاة المغرب تجيبيهولي هنا.

- بس...

- بس إيه يا بنتي، الناس لبعضها.

أربعة أشهر وهي تقوم بإرضاعه حتى نشأت بينهما علاقة أشبه بعلاقة الأم بولدها، وكانت ريحانة أول ما تدخل به وتضعه في حِجْرها تقوم أمي بإخفاء

وجهها؛ لترى ما إذا كان سيعرفها أم لا..

هي لحظات التي يتوه فيها، ثم يجري نحوها ويرفع الطرحة عن وجهها فتحتضنه بفرحة، ومرة ثم مرة وأصبح يعرف أمي من رائحتها أو نبرة صوتها وتفشل أيَّة محاولة للتخفِّي والمزاح معه، تعبث يده بعدها في صدر جلبابها ملتمسًا الثدي، وبعد كل رضعة يناغيها ويضربها بكفِّه كي تُعيد ثديها مرةً أخرى ويرضع من جديد، لم يكن يرضع، هُمَّا قطرتان أو ثلاثة ويكتفي لكنه يريد الثدي، يظلُّ يلعب فيه ويكبشه بأصابعه، وكلما نهرته نهرًا خفيفًا وعلى نحوٍ يفهم منه أنها تداعب فقط، يزداد تعلُّقًا بالثدي وتنفرج أسارير وجهه حتى آخرها..

أَحبَّ أمي، أحبته هي الأخرى بأكثر مما يحبها..

وكانت تغني له وهو في حِجْرها:

.. برهومة.. يا برهومة.. يا عيون أمك سميحة..

فهذا هو اسم أمي، ثم تكمل بأغنية لمطربتنا الكبيرة نجاح سلَّام كانت ذائعة في ذلك الوقت:

برهوم حاكيني.. زعلانة سلِّيني..

برهوم مين قدَّك.. الورد على خدَّك..

برهوم.. برهوم.. برهوم حاكيني..

وهو يتفاعل مع غنائها وتزداد ابتساماته، أو يشرع في الضحك كلما ضربته خفيفًا على مؤخَّرته.

لم تنقطع طقوس الأمومة هذه والوجع بالتالي لأمي، إلَّا بعد أن انكرش إبراهيم من البلدة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

اشتدَّ ولعُ أبي بسجائر المارلبورو..

تعلَّق بها بعد آخر جلسة صُلح شارك فيها، حيث كان المُحكِّمون بين أطراف النزاع يجلسون وأمام كُلٍّ منهم عُلبةُ سجائره المستوردة، رحل الزعيم وذاعت هذه السجائر بين المُوسِرين؛ الشيخ واعر أمامه (الرُّوثمان)، والحاجّ أبو القاسم (الكِنْت) ومَن بيده السيجارة (إل. إم.)، وأبي سيجارة (البلمونت) بين أصابعه، مسكين! لا يزال في غفلة، لم تصله رياح التغيير بعدُ، أظنُّه شعر بالحرَج من نفسه يومها، أرض ودَوَابّ وشقيق العمدة ومُحْدثو النعمة أكثر منه نفخةً وفخامةً أمام الناس، أبي وأعرفه جيدًا، لا يقبلها على نفسه..

من يومها نشأت علاقة بينه وبين المارلبورو، ولم تكن هذه السيجارة متاحةً في مَحالِّ البقالة، عمّ حرفوش ملك الممنوعات وبائع الجرائد والخردوات في الظاهر، هو وحده الذي كان يبيعها بـقترينته التي عند الموقف.

انطلقتُ ذاتَ صباحٍ نحو المارلبورو..

لكن هناك ما هو أهم، فقد تجذبني الحركة وأتسكَّع أمام الدكاكين وفي الأسواق وأنسى السجائر، أو أتتبَّع لمَّة ناس فرغوا للتَّوِّ من مشاجرة واتجهوا صُحبة بعض العقلاء صوبَ بيت العمدة ليقضيَ بينهم، ألحق بذيل اللمَّة وأظلُّ أسأل وأسأل حتى أعرف ما الحكاية بالضبط، وعندما أعود للبيت أنالُ توبيخًا من أبي على تأخُّري، شيء تعوَّدتُ عليه، هو يريدني كالأَلِف على القرطاس، أسيرُ في خطٍّ مستقيم وأنجز المطلوب وأرجع بأقصى سرعة، وأنا لي وجهة نظر أخرى، أحبُّ الاندماج في الشارع أو على الأقل الاستمتاع بما يجري أمامي وتخزينه في رأسي لوقت الحاجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما استوقفني هذا اليوم الجلبَة الدائرة أمام دكان عدلي وفهيم..

وركوبة تتقلقل بضجَرٍ بين هذه الجلبة، التقطتها عيناي وفي لحظتها عرفت أنها ركوبة غريبة، من شكل البرذعة التي فوق ظهرها؛ لها سَنَمٌ مرتفعٌ عن أسنام براذعنا وألوانها الأحمر في أزرق في أصفر ليست من سِلْو بلدتنا، نحن محترمون ولا نميل لهذه الألوان الفاقعة، ناهيك عن أنِّي وبحمد اللـه أولًا وبأكعابي التي انبرت في الشوارع ثانيًا لي دراية بكلِّ ما يمشي على أربع في بلدتنا؛ الجمَل العضَّاض، الجاموسة النطَّاحة، حَمِير السِّباخ من حمير الأعيان، وكل مَن يقلُّ أدبه ويَعَضُّ ويرفس ويأخذ حقَّه في لحظتها، أو مَن عيناه في

الأرض ولا رِدَّة فعل ولا تعقيب على عيِّل ينخُسُه من الخلف أو ينهال على رقبته بالعصا.

هذه الركوبة كانت حِمارًا مقيَّدًا في الوَتِد المدقوق أمام الدكان، وعلى ظهره زكيبة تهتزُّ وتميل كلَّما تململ الحمار من القيد المعقود بقدمه وحاول الإفلات، خمَّنتُ أن الزكيبة معبَّأة بخيرات المعلم عدلي حيث كان واقفًا يتجادل مع صاحب هذا الحمار وحولهما بعض المارَّة.

المعلم عدلي يقول للرجل بإصرار:

- ناقص سبعة جنيه.

والرجل:

- خمسة بس، إحنا اتفقنا على خمسة وتلاتين، إديتك تلاتين وفاضل خمسة.

وعدلي بغضب:

- لا حول ولا قوة إلَّا باللـه! اتفقنا إمتى! دا أنا قلت سبعة وتلاتين وانت هزِّيت راسك، يعني وافقت.

والرجل بإصرارٍ هو الآخر:

- محصلش.

وتدخَّل أحد الواقفين:

- خلاص يا معلِّم عدلي، خمسة من سبعة المسألة بسيطة.

وهو يتجاوب مع مَنْ تكلَّم:

- حاضر يا حاجّ لملوم مش هكَسَّر كلامك.

والتفت إلى صاحب الحمار:

- هات الخمسة جنيه واتِّكل على اللـه.

- ممعييش، كل اللي في جيبي أربعين قرش، يتبقُّوا عليَّه.

وانحنى على قدم الحمار يفكُّ القيد، والمعلم عدلي يدفعه خفيفًا ويقبض على رقبة الحمار ليمنعه من الحركة:

- عليك مين! دا انت مكسور عليك ييجي عشرين جنيه..

وبأعلى صوته ينادي على أخيه فهيم الذي بالداخل:

- يا فهيم. يا فهيم. هات الدفتر.

لم يصل النداء إلى فهيم؛ كان مشغولًا بأحد الزبائن، وعدلي يقول للواقفين:

- آديكوا هتشوفوا الدفتر بنفسكم، وتعرفوا إن معايا الحق.

والرجل:

- يا ستَّار يا رب، دا انت راجل صعب!

ويحاول جذب الواقفين إلى صفِّه:

- أصل الجماعة دُول القرش عندهم غالي، دا إيه الناس دي! الحمد للـه على نعمة الإسلام.

ينتبه الحاجُّ لملوم إلى ما يقصد وأنه يأخذهم إلى وجهة أخرى:

- جماعة إيه وبتاع إيه يا جدع إنت، دا بيع وشِرَا! ويا تدفع يا تنزِّل الزكيبة وتاخد حمارك وترحل.

دفع الرجل الجنيهات الخمسة، لم يكن معه أربعون قرشًا مثلما قال، عشرة جنيهات كاملة..

وأنا كالصاروخ إلى ريحانة، لماذا لا أعرف..

قدماي هما اللتان قادتاني، هما اللتان اتخذتا القرار وأنا الذي نفَّذت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

لا تلكُّؤ في فتح الباب هذه المرة، فريحانة هي التي استقبلتني..

كانت خارجةً للتَّوِّ من الحمَّام والطزاجة من رأسها حتى قدميها، كما لو أنها ثمرة تفاح قُطفت قبل لحظة، ولما اطمأنَّت أني (علي) وليس رجلٌ كبير رفعت الفوطة التي تلفُّ شعرها، الشَّعر يصل تقريبًا إلى منتصف ظهرها وزادها فتنةً، وكان الجلباب البيتي الخفيف الذي ترتديه مبتلًّا عند البطن كما رأيت ساقيها كاملتين، البلَل كثيف في هذا الموضع وشفَّ الجلباب عنهما من الركبة إلى مفصل القدم..

تضع يدها حول كتفي ومعها قطرةُ ماءٍ تسقط من شعرها على وجهي، أرفع رأسي إليها مبتسمًا، تبتسم هي الأخرى وإبراهيم الذي تحمله بيدها الثانية يُشاكسني، الفوطة لا تزال على كتفها، استأذنتني في أن تغسلها وسلمَّتني إبراهيم حتى تفرغ، جلسَتْ على مقعدٍ وطيءٍ بالقرب مني ووضعت الفوطة في طستٍ صغيرٍ وطفقت تغسل، مساحة من الفخذين كانت عارية أمامي ويزداد العُرْي كلماَ تحركت ساقاها وهي تغسل..

عيناي على هذه المساحة، تنشغلان بإبراهيم مرةً وتختلسان النظر إليها عشرين مرة، لم تَحتطْ مني ريحانة وتداري نفسها، تحسبني عيِّلًا لا أفهم، لستُ عيِّلًا لهذه الدرجة، ولا كبيرًا أيضًا وجسدي يتحرك نحوها بشهوة، لا هذا ولا ذاك، أو الأصوب بين هذا وذاك، وكنتُ لا أتمنى فقط بل أشعر بأنها تخصُّنِي وحدي، لا زوجها عدلي ولا أي واحد آخر في هذه الدنيا كلها، أنا وحدي، ووَدِدتُ لو قمتُ وجلستُ بجوارها وهي تغسل، آخذ ما في يدها وأشطفه أو أقوم بوضعه على الحبال.

مشاعري في هذه اللحظات ليس من اليسير وصفها بدقَّة، لا تزال على الحافة، في طور التكوُّن، لا هي مشاعر حب ولا فيها رغبة الكبار وشهوتهم، شيءٌ ما بين الأحاسيس نحو الأخت الكبيرة وأشياء نحو امرأةٍ حلوة تودُّ اللعب معها، والرغبة إن وُجِدت ليست هي المقصد، ولا يُقال أنها مشاعر إعجاب، هذا الوصف لا يفي بالمعاني التي أقصدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقطع عليَّ الست دميانة هذا المشهد، أراها وهي تهبط بصعوبةٍ الدَّرَج الفاصل بين الغرَف الداخلية والـحُوش الذي نحن فيه.

تقترب مني، تقف تقريبًا عند رأسي مستندةً إلى عصاها، أرفع عينيَّ إليها لنتبادل التحية فقد التقينا من قبل ويعرفُ كُلٌّ منَّا الآخر، غير أني ألحَظُ تجهُّمها

في وجهي وثمَّة استفسار في عينيها عن سبب وجودي في بيتهم وبكلِّ هذه الأُلفة! ألحظ أيضًا تَغصُّن وجهها عن المرة السابقة، وكانت كفُّها القابضة على العكَّاز ترتعش بذبذبة ثابتة فترتعش معها العصا هي الأخرى.

ريحانة هي التي أنقذتني منها:

- دا علي ابن الحاجّ سلامة، هو إنتي نسيتيه!

- سلامة مين؟

وبصوتٍ خافتٍ تتمتم ريحانة:

- يادي النهار اللي مش فايت..

ثمَّ يعلو صوتها:

- علي.. علي.. علي يا خالتي!

وتشير لي من ورائها بأن عقلها ساعات يغيب عنها وتنسى ما رأته أو قِيل لها قبل دقيقة، والسِّتُّ دميانة مُصرَّة على الاستجواب:

- وعايز إيه؟

لم تردَّ عليها ريحانة وهي لا تزال واقفةً في انتظار الإجابة، ثم تحرَّكت وهي تلعنُ الجميع:

- جاكُم السُّخام كلكم، إنتي وعدلي والجحش أبو ودان اللي اسمه فهيم.

وبعد خطوة خطتها التفتَتْ إليَّ مبتسمةً، يبدو أنها تذكَّرتني، ثم جلست غير بعيدٍ وعدَّة دجاجاتٍ ما صدَّقت أن رأتها حتى أسرعت إليها وتبحث بعيونها ومناقيرها عمَّا في حِجْرها مثلما تعوَّدت، وهي تهشُّها بظهر يدها وتشخط فيها كلما ألحَّت.

ولبثنا صامتين أنا وريحانة إلى أن قامت تضع الفوطة على حبل الغسيل، فقمتُ مع قومتها:

- أنا ماشي..

- ماشي.. طيب..

قالتها بفتور أو ربما بلا تركيز، غير أنها انتهزت فرصة وجودي وقالت لي وبما يشبه الرجاء:

- علشان خاطري يا علي، أنا كَتّ عايزه صابونتين غسيل وتَلَتْ بواكي شاي، من هنا من عند الراجل اللي فاتح على ناصية الحارة.

- قُرِّيرة، وهجيبهم من عند عمّ زكريا.

واضح أن الست دميانة كانت معنا كلمة بكلمة، فقبل أن أنطلق نادت عليَّ:

- وأنا كمان هاتلِي معاك حُقّ نشوق.

وريحانة عيناها عليها، وتهمس:

- ما دام رايح عند زكريا...

وتأخذني تحت إبطها:

- تعالى.. تعالى..

ومشت معي إلى الباب لترفع لي السُّقاطة بزعم أنها أعلى من مستوى ذراعي وقد لا أطولها، وهي لا أعلى ولا شيء ويمكن أن أصلَ إليها إذا شببتُ على أصابع قدميَّ؛ أرادت الانفراد بي وانفردت:

- هاتلِي معاك كمان قزازة ريحة.

وبحذرٍ التفتت نحو العجوز التي كانت ترمقنا:

- وقولُّه كمان على علبة بودرة.

- بودرة!

- آه بودرة خدود.

ترِدُ على بالي فورًا علبة البودرة التي كان البصباص زكريا يعرضها على صديقته نعناعة، وأشعرُ بالضيق، أقول لها بإصرار:

- معندوش الحاجات دي..

- لأ عنده، إنت بس قولُّه..

- معندوش، أنا متأكِّد..

وهي بارتباك:

- يلَّا يلَّا رُوح..

وتدفعني بيدها كي أتحرك..

اشتريتُ لها الصابون والشاي فقط، وليس من زكريا بل من الدكان الذي بناصية الحارة؛ وكذلك حُقّ النشوق للست دميانة، وريحانة تسألني بزغدة خفيفة في جنبي:

- أمَّال فين قزازة الريحة؟

- خلصت..

- والبودرة؟

- بيقول إنه معدش بيشتغل في الحاجات دي..

كنت أغار عليها والغيرة هي التي دفعتني لأن أكذب، وعندما سلَّمتُ العجوز دميانة حُقّ النشوق ربَّتَتْ على ظهري بمودَّة، وأشارت لي بأن أجلس بجانبها ونتسامر معًا، أحببتُ أن تكون المسامرة لصالحي أنا وليس لصالحها، وبادئ ذي بِدْء اقترحتُ عليها أن تحكي لي (حدُّوتة) من حواديتها، فهشَّتني بيدها:

- حدوتة إيه يا واد إنت عالصبح كده، هو انت عبيط! قُوم قوم من هنا..

والغريب أني جئت وانصـرفتُ دون أن تسألني ريحانة عن سبب قدومي، كنتُ على استعداد بخمس إجابات وليس إجابة واحدة..

هي التي لم تسأل..

كما لم أقُل لها عن الشِّجَار الذي دار بين زوجها عدلي وصاحب الحمار، لم أشأ تشتيت فكرها بشـيءٍ يشغلها عني، ولا حتى قلت لأمي عندما رجعت بأني كنت عند ريحانة، عرفَتْ فيما بعد وعيناها فيهما بعض الشك:

- إيه اللي ودَّاك هناك؟

- قلت أطُلّ على الواد إبراهيم..

وهي غير مقتنعة لكنها سكتت، أبي هو الذي أشعل البيت بصياحه وكاد أن يتهوَّر عليَّ بخيزرانته، فلا المارلبورو رجعت بها إضافةً إلى ساعتين كاملتين في الشارع..

سألني أولًا:

- لماذا تأخرتَ؟

ادَّعيتُ بأني على وشك التبوُّل على نفسي، وأسرعتُ إلى المرحاض وعندما رجعتُ قلتُ له:

- وفلوس السجاير كمان وقعت مني، أصل كان فيه عركة وزيطة عند الموقف.

يبدو عليه الانتباه..

- عَرْكَة! مين اللي بيتعارك؟

- عركة كبيرة ونبابيت وواحد راسه مفتوحة وواحدة ست عمَّالة تصوَّت...

يقاطعني وصبره يكاد ينفد:

- مين دُول يابني اللي كانوا بيتعاركوا؟

- آهي ناس بتتعارك..

يضيِّق عليَّ الخناق:

- ناس مين يعني؟

- مش عارف..

- مش عارف إزاي! إنت بتستعبط! دا الكتكوت اللي لسَّه طالع من البيضة إنت عارف اسمه إيه، والفراخ اللي في البلد عارفها كلها بالواحدة.

- ناس أغراب مش من بلدنا، من عزبة (السنَّاري) اللي في ريحنا ولَّا مش عارف عزبة مين، وشيخ البلد بتاعهم محوِّلهم على ظابط النقطة.

أيقن أنه لن يصلَ معي إلى نتيجة:

- كده.. طَبْ يلَّا يلَّا يا فالح من قُدَّامي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

وكما هو متوقَّع انفضحت نعناعة وزكريا..

ومتى؟

بعد صلاة الجمعة والناس خارجة من الجوامع، أما الشهود فكانوا حفنة عيال لا يُعتدُّ بكلامهم إلى أن ظهر على الشاشة شاهدٌ جديد: الدريني..

وقد جاءنا أول خيط لهذا الحدث من الناس الذين كانوا يصلُّون بالجامع المجاور لمدخل البلدة، أبلغونا بأنه بعد أن ختم الإمام الصلاة وشرعوا في الخروج فوجئوا بكبشة عيال تندفع نحوهم، ومنهم مَن يصيح بأعلى صوته بأنهم رأوا زكريا ونعناعة في وضعٍ مخجل!

والعِيَال - حسبما قال الذين يحكون لنا - كانوا في غاية الارتباك، وعندما هدَّأناهم واستفسـرنا منهم عمَّا حدث هي كلمة واحدة التي صمَّموا عليها:

- كانوا بيعملوا قِلّة أدب مع بعض..

فقلنا:

- يا ساتر يا رب! فين؟

- في الـخُصّ بتاع الحاج عبادة.

وأشاروا إليه، ونحن نقول لبعضنا البعض:

- ساعة الصلا! ويستاجروا! آه يا قُلالات الدين..

الخُصّ فركة كعب بعد القناية التي هناك مباشرةً، وأكثرُنا - وفقما استطرد الذين يحكون - لم يكن قد وضع مداسه في قدميه بعدُ، ارتديناها بسـرعة ومنا - من لَهْوَجته - جرى حافيًا ومداسه في يده، ولا نعرف كيف وصل الخبر إلى قلب الجامع ذاته وعرفه المُصلُّون الذين عادةً ما يبطئون في الخروج، فيا سبحان اللـه خلا منهم الجامع في دقائق وطاروا وراءنا، وعندما وصلنا إلى الخُصِّ لم نجد شيئًا ذا بال!

الأشياء المعتادة فقط..

حصيرة، ثلاثة قوالب من الطوب الأحمر على شكل راكية لا يزال الجمر متَّقدًا أسفل منها، وبرَّاد شاي بأعلاه غطاؤه يتقلقل خفيفًا من البخار الذي لم يهمد بعد..

من شدة الغيظ أطاح واحدٌ منَّا البرَّاد بركلة من قدمه، وآخر صاح فينا مرةً واحدة:

- بُصُّوا.. بُصُّوا.

والتقط من الأرض بنسة شعر ومُشطًا من أمشاط النسوة كانا ملقيَّيْن على جنب ولم نلحظهما عندما دخلنا، وأخذ هذا الرجل - والعياذ باللـه - يسبُّ الدِّين لنعناعة وأبي نعناعة وجَدّ نعناعة أيضًا، ورجل إلى جواره يومئُ برأسه عدَّة مرَّات على سبيل التجاوُب، فقد أوَّلَهما هذا المتجاوب على أنهما يخُصَّان نعناعة، ونحن في هَرَجٍ ومَرَج، هذا يريد أن يتفرج على البنسة والمُشط، وهذا لمح كوزًا من الذرة المَشوية فانحنى عليه ونهش بعضه، ورجل كبير في السِّن يلوم سبَّاب الدين هذا ويُفهمه أن الحُرمانيَّة ركبته بهذا السَّبِّ، فإلَّا سبّ الدين؛ حرام وأكبر حرام ومآلُه الرمي في النار (حَدْف)، وبالذات لو نُطق به في يومٍ مبروك كيوم الجُمُعة!

ونحن في غمرة كل هذا لمحنا رجلًا جلبابه معقود حول خَصْره ويعدو بأقصى ما في وسعه داخلًا البلدة، فصاح أحدُنا بأعلى ما فيه:

- أهُه.. أهُه.. ابن الواطي زكريَّا.

ووراءه آخر:

- آه واللـه، هو ابن فَطُّوم.

وخطفًا - كما الصاروخ - تمرُق امرأةٌ أمامنا، فوجئَتْ بنا مثلما فوجئنا بها، وبسرعة خاضت في القناية التي بجوارنا حتى إن طرطشة الماء لحقت بملابسنا، ثم دخلت في حوض ذُرَة واختفت عن أعيننا..

هي نعناعة، هي والختمة الشريفة! كانت واضحة كعين الشمس، وخُذ عندك بعدها من الكلام الفالت:

- آه يا بنت الكلب..

- من يومها فاجرة ووِشَّها مكشوف..

- يا فضيحتك يا عباس..!

ومن قال هذه الكلمات يقصد أخاها طبعًا..

والذي يعلق:

- تيس، عديم المَرْجلة، وياما قُلْنالُه..

وفي اللحظة نفسها ظهر لنا الدريني خارجًا من غيط الحاج (دربالة) وعلى كتفه لفَّة حبال، ويلهث، صدره يعلو ويهبط رغم أنه لم يكن يجري أو يقوم بفعلٍ يستدعي اللُّهاث، فضلًا عن أن وجهه كان مخطوفًا فأدخلنا جميعًا في التباسٍ..

فهل هو الفاعل يا تُرى! وابن فَطُّوم الذي لمحناه قبل دقائق لا دخل له بما نحن فيه، انساق البعض وراء هذا الافتراض وأمسك برقبة الدريني..

العيال هم الذين قطعوا الشك باليقين؛ صاحوا فينا:

- مش هوَّه.. مش هوَّه.. عمّ الدريني برَّه الحكاية، زكريا ونعناعة هُمَّا اللي عملوا العَمْلَة.

ودقائق وتجمعوا في شكل زفَّة، ومن دون إعداد أو تلحين مُسبَّق جلجلت حناجرهم بمونولوج طريف جادت به قرائحُهم من وحي اللحظة، كما لو أنهم فريق من فرَق الكورال يغني ويرد على نفسه:

- مين؟ مين؟

- نعناعة وزكريا..

- عملوا إيه؟

- عملوا العَمْلة..

- فين؟ فين؟

- في خُصّ عَبادة..

- عبادة مين؟

- صاحب الـخُصّ..

وكان (منشاوي) وأكيد كلكم تعرفونه: ابن الحاج عبادة، كان يصلي معنا في الجامع وجرى والله معنا وانهدَّ حيلُه، لكن حاله انقلب وقادت فيه النار عندما سمع المقطع الأخير لهذا المونولوج..

معلوم! أبوه، وقِلَّة أدب الزجّ باسمه في مسألة رخيصة كهذه..

هاج منشاوي طبعًا في العيال؛ طفق يطاردهم بعود حطب التقطه من الأرض ومَن يلتفت منهم وراءه وهو يجري يحسُوه بالتراب؛ كان غاضبًا بشدة ولو أمسك بعيِّل منهم لقطمَ رقبتَه.

واستكمل المصلّون قولهم بأنهم تأسَّفوا للدريني على الغلط الذي غلطوه في حقه، وفي المقابل أكَّد هو الآخر ما قاله العيال وأنه مستعدٌّ للشهادة بما رآه.

وأحدُنا يأخذ منه الرد القاطع:

- يعني شفت بعينك يا دريني؟

- شُفت وسمعت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل هذا المشهد بساعة كانت الست فَطُّوم في بيت ابنها زكريا..

جاءت تعود زوجته حسنات وتطمئن على أحوالها، هذا ما قالته أول ما جلست، وكلمة من الشـرق ثم كلمة من الغرب وخاضت فيما أتت من أجله، أوصتها بزكريا وأنه في عزِّ شبابه الآن ومرغوب من كل نسوة البلد.

أكَّدت هذه النقطة بالذات، وأضافت بأن أي رجل محترم مستقيم - وتقصد ابنها طبعًا - في حاجة إلى أنثى تُسامره ويسامرها كي لا تزوغ عيناه إلى فلانة أو عِلَّانة، وبلطفٍ ودون إحراجات قالت لحسنات إنها تعرف بأن ظروفها لا تساعد لكن حبَّذا لو جاءت على نفسها واهتمت، وزوجة ابنها تلين وتتجاوب وتَعِدُ حماتها خيرًا، وكان ابنها الحيلة (خيري) سهران مع بعض أصحابه ليلة الأمس، التفوا حوله كالدبابير ودارت الجوزة إلى ما بعد منتصف الليل وإلى الآن ما زال مرميًّا في السـرير، سُعاله هو الذي كان يتناهى إلى أُمِّه وجدَّته فطوم.

المرأتان كانتا جالستين على كنبة الصالة والرضا على وجه الست فطوم بالذات بعد أن شعرت بنجاح مساعيها، وتلحظ حسنات أن حماتها أنهت كوب الشاي الذي في يدها فتميل على البرادِ لتزيدها منه، وما إن فعلت حتى انفتح الباب الخارجي بعنف واندفع زكريا داخلًا منه حتى كاد أن ينكفئ على وجهه، فهبَّت المرأتان واقفتين وهما تقولان في نَفَسٍ واحد:

- يا ساتر يا رب! إيه اللي جرى؟

كان زكريا في أسوأ حال رأتاه عليه، وجهه كفصِّ الليمونة ومن فتحة الباب نظر عدة مرَّات ثم أغلقه بالترباس وجرجر الكنبة ووضعها خلفه، في خياله - هذا البائس – أن المطاردة لا تزال مستمرة، وأنهم سوف يقتحمون عليه البيت ويُخرجونه مثلما يُخرجون الفأر من الـجُحر، ورعشةٌ تسري بأصابع يده وكل جسده، ولمحت أُمُّه قطرات بول على جلبابه فاختلست نظرةً نحو حسنات وتمنَّت ألَّا تكون رأتها هي الأخرى؛ عيب وكسفة للرجل أمام زوجته، ومَن يدري؟ فقد تُعيِّره بذلك في أي زعل بينهما، المهم أن زكريا في مجمله

كان مرعوبًا وأشبه بالعنزة التي ضاعت من صاحبها ولا تعرف أين تذهب أو كيف تتصرف..

أسرع إلى غرفة الخزين وهما وراءه، ألقى بنفسه على السرير السِّفَري الصغير وشرع في البكاء، وأمه تضرب بيدها على صدرها:

- فيه إيه يا حزين؟ وقَّعت قلبنا..

وحسنات وراءها:

- الدُّكَّان ولَّع ولَّا إيه اللي جرى..؟

حكى لهما ما حدث وأن الغلطة غلطته..

وعيناه تستجديان المساعدة، ومن زوجته بالذات؛ هي التي لها كيانٌ وعزوة في البلدة وقادرة على أن تدعمه، أما أمه فغريبة وعلى باب اللـه مثلها مثله.

ومعه حق..

فلم تفعل الست فطوم شيئًا سوى اللطم على خدودها، بنت الأصول حسنات هي التي تصرفت، بيتها سوف ينخرب وزكريا مهما كان زوجها وسترها وغطاؤها؛ أسرعت إلى غرفة ابنها خيري ليأتيها حالًا بأخيها رمضان والولد كما التيس نائمًا لا يتحرك، لم يستيقظ إلا بعد انهالت بالشبشب فوق رأسه ودفعته نحو الباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وحدث ما كان متوقَّعًا في هذه الحالات، بدأت الجلبة حول البيت..

جرابيع النسوة ممَّن لا هَمَّ لهُنَّ إلا تسقُّط الأخبار يقرفصن على مسافة قريبة، ولو فتحتَ نافذةً من نوافذ بيت زكريا أو كنتَ تسير مصادفةً لرأيتهن، ثلاثة صفوف ومن كل الأعمار، صبايا في سنِّ اللعب والفرفشة، نسوة ناضجات، وفرقة عواجيز طمست التجاعيد وجوههن حتى تماثلت ولا تعرف هذه من تلك، وغير بعيدٍ مجذوب من المجاذيب بجلباب قصير وعصًا وشيء كالطرطور فوق رأسه، لم تكن تفوته هذه المناسبات، هو أول مَن يحضر وآخر من يذهب.

وعندما وصل الخبر إلى العمدة أدرك بحاسَّته الأمنية أن تجمهرًا لا شك سوف يبدأ أمام بيت زكريا، وعلى سبيل الاحتياط أرسل ثلاثة خفراء بالخيزرانات، وصدق حَدسُه حيث وجدوا النسوة، لم ينصرفن إلا لما استخدموها معهن، رفعوها في الهواء أولًا على سبيل التحذير إلا أنهن لم يتحركن، وعندما انهالوا بها عليهن تفركشت القَعْدة وكُلٌّ إلى بيتها.

لم يبقَ سوى المجذوب..

فشلوا معه، حاولوا إقناعه بالحسنى غير أنه تحداهم، ولما هدده أحدهم بخيزرانته - ومجرد تهويش وليس في نيَّته أي أذى - رفع إصبعه إلى السماء، محذرًا بأن اللـه في صفِّه ومَن يريد التأكد فليهبط عليه بما في يده ولسوف يرى العقاب الإلهي في لحظتها، فكشَّوا منه وتركوه جالسًا.

ووصل رمضان إلى بيت أخته حسنات ومعه ابنه الكبير حجازي، لم يأتيا وأيديهما فارغة، كلٌّ منهما في يده نُبُّوته، وأول كلمة قالها رمضان لأخته:

- دا إيه الوساخة دي، وساعة الصلا..

وعندما لمح الست فطوم اختشى وسكت، وطمأن حسنات بأن زكريا في حِماه ولن يصل إليه أحد إلَّا على جثته، فحتى هذه اللحظة كان موقف رمضان رجوليًّا، ونال كثيرًا من الدعاء من فَمِ الست فطوم.

كل هذا وعباس شقيق نعناعة لا يدري بشيء، من أول النهار وهو في عزبة السناري، استأجره أصحابها ضمن بضعة أنفار من البلدة، وعندما رجع سحبَ نُبُّوته واستعدَّ..

لم يكتفِ بنفسه؛ ذهب إلى ابن خالته (المهيلمي) ليؤازره، سحب نبوته هو الآخر، لم يفعلها من باب الشرف والشهامة، فحاله حال زكريا، عيناه على نعناعة ويودُّ العبثَ معها، ووجدها فرصةً لتسوية الحسابات مع هذا الـجُرْز الذي يزاحمه، أما نعناعة ففَصَّ مِلْحٍ وذاب، حتى العِفْرِيت ذاته لم يكن يعرف أين اختفت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

لولا الشيخ (واعر) لسالَ الدَّمُ وانخربت بيوت..

أراح البلدة فعلًا من هذه المشكلة وأخرج زكريا منها كما الشعرة من العجين، فعل هذا الرجل القصير السَّمين أبو عمامة ومنشَّة بمقبض من العاج ما يعجز عنه جناب العمدة أو ضابط النقطة أو حتى القاضي في المحكمة.

فعلها بالفطنة والحيلة ودون نظر إلى أين الحق ومَن المصيب ومن المخطئ، فإحقاق الحق ليس هدفه الأول، يجيء الحق ثالثًا أو رابعًا أو حتى لا يجيء! المهم عنده الحيلولة دون استفحال الضـرر، وأن يخرج كُلٌّ طرفٍ بعدها ووَهْمٌ يتملَّكه بأنه وحده الذي ربح، أو على الأقل صورته أمام الناس لم يمسَسْها سوء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فبعد أن جثم الشرُّ على البلدة من جرَّاء فعلة زكريا ونعناعة لجأ الناس إلى العُمْدة غير أنه خذلهم ولم يتدخل، أحالها إلى أبي الذي تملَّص منها هو الآخر، الإنجاز الوحيد الذي ساهم به الوالد أنه اقترح عليهم الشيخ واعر، وأن تكون جلسة الصلح في غرفة الكَتَب ببيتنا.

غرفة مستطيلة وعلى كلِّ جانب بالطول خمسُ كنباتٍ تواجه بعضها البعض، وقد ضمَّت أطراف العائلتين، عائلة نعناعة وعائلة زكريا، الرءوس الكبيرة فقط، وفي الصدارة كنبة متميزة أمامها منضدة يعلوها مصحفٌ كريم ومطفأة للسجائر وقلم وعدة أوراق..

احتلَّ أبي هذه الكنبة بمفرده والكلُّ في انتظار الشيخ واعر ليجلس إلى جانبه، وبغرفة في الجوار الأطراف المباشِرة، الطرف الأول زكريا ومعه صهره رمضان، والطرف الثاني عباس شقيق نعناعة ووَليّ أمرها أما هي فلا تزال هاربة، والدّريني الشاهد الوحيد، والجميع في حراسة ثلاثة خُفَراء من مشاديد العمدة، أما العِيال الذين رأوا وهلَّلوا استبعدوهم؛ قالوا جُهَّال ولا يصلحون للشهادة.

وكانت التعليمات التي تلقَّيتُها من أبي ومعها فَرْكة بإصبعيه لأُذُني: أن أذهب وألعب في الخلاء، ألَّا أقترب نهائيًّا من البيت وإن رجعت ففقط لأقضيَ حاجتي في المرحاض ثمَّ إلى الخارج مباشرةً.

كان قَلِقًا من وجودي، فالجلسة عن مُحرَّماتٍ وأشياء غَلَط وقد تُقال فيها ألفاظٌ خادشة، ويخشى أن أقوم بنقلها إلى حريم البيت بعد عدَّة رتوش طبعًا

أضيفها من عندي حسبما اعتقد..

وهل أنا الذي أفعل هذا؟

هل أنا عبيط يا حضرة الوالد!

المشكلة التي بيني وبين أبي أنه يتشكَّك في نِيَّاتي، يضعني في دائرة الاتهام دائمًا..

لم يفهمني أبدًا، عن نفسي كنت أفهمه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ووصل الشيخ واعر..

في الخمسينات وخطوته سريعة وهو داخلٌ علينا، ومع قِصَره وسمنته وهذه السرعة في المشي بدا كالكرة عندما تتدحرج، ورغم السيجارة التي لا تفارق يده لم يكن يلهث مع أي انفعال أو حركة أو سَعَل سعلةً واحدة طوال الجلسة.

يُقال أنه يشرب رُبع كوز من عسل النحل على الريق كُلَّ صباح..

بل قيل أكثر من ذلك عن فحولته وتلال الفلوس التي يملكها من التجارة في كل شيء؛ الحبوب، العلَف، الكيماوي، المبيدات الحشرية، وأنه حوتٌ من حيتان السوق السوداء.

الناس هم الذين قالوا هذا في كواليس الجلسة وليس أنا، فمن جانبي كنت معجبًا به، وبصراحة سحب البساط من تحت أقدام أبي، كل الأنظار توجهت له وغفَلت عن صاحب البيت!

أخرَج عُلبتَيْ سجائر (روثمان) من جيبه الداخليّ ووضعهما فوق بعضهما البعض وإلى جوارهما نظَّارته (البيرسُول)؛ إذ كان مُعتدًّا بمُتعلَّقاته الصغيرة، تميزه عمَّا حوله؛ ولَّاعة فضية، كوفيَّة من وبَر الجمل، خاتم بفَصّ ياقوت بإصبعه الخِنْصَر، وسلسلة مفاتيح سيارته المرسيدس موديل عشـر سنوات مضت عن الزمن الذي كنا فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبي تقريبًا أمين الجلسة..

تهامسَ هو والشيخ عدة لحظات، ثم ذهب بعينيه صوبَ باب الغرفة مُناديًا الـخُفراء بأن يأتوا بمَن هم في الغرفة المجاورة، غير أنه سَرْعان ما قطَّب حاجبيه وعاد ببصره ناحية الباب مرةً أخرى..

آخْ! لمحني، جاءت عيناه في العين التي أختلس بها النظر من فتحة الباب، فوضعت ذيلي في أسناني وطرتُ مُبتعدًا، مؤقتًا فقط، فحتمًا سوف أعود..

ودخل الخفراء بمَن معهم؛ زكريا ورمضان وعباس، وتوزَّعوا على الكنب كُلٌّ بين أنصاره، فيما عدا الدريني الذي مكث بالباب رافضًا الدخول، وفي اللحظة ذاتها فوجئ أبي بوجود المهيلمي ابن خالة نعناعة بين الجالسين، فسأله:

- وإيه اللي مقعَّدك معانا دلوقتي يا مهيلمي، مش والدك وعمامك الاتنين موجودين وهُمَّا الكبار ويِغْنُوا عنَّك؟

أجابه المهيلمي بصوتٍ ليس له تصنيف، شيء قريب من زربنة ورُغاء الناقة الغاضبة:

- ومقعُدْش ليه يابا الحاج، هو أنا شوية!

سَأسَأ أبي بضيق وطَأطَأ أبو المهيلمي رأسه حرَجًا، ثم هبَّ واقفًا يُربِّت على صدره معتذرًا لأبي:

- امسحها فِيَّه يا أبو سمير (يخاطبه باسم أخي الكبير)..

وأشار بعض الجالسين على أبي بأن يتجاوز، فالكلُّ يعرف غشم المهيلمي ورأسه البالي وأننا لو فتحنا باب النقاش في هذه التفصيلة من الممكن أن نقضي اليوم كله فيها، ناهيك عن أن المهيلمي في تقييمه لذاته يعطيها أعلى الدرجات، فهو - وحسبما يعتقد - ليس رجل عِرَاك ونبابيت فقط بل يفهم ويزن الأمور أيضًا ويستطيع الإدلاء بآراء صائبة، ووجوده في المجلس سوف يُثْريه ولا شك، الأمر للـه، هكذا كان يتصوَّر!

تجاوَزَ أبي..

والدريني لا يزالُ في مكانه عند الباب وحانيًا رأسه، وشيخنا واعر الذي يفهم طباع الدريني جيدًا يميل على أبي لافتًا نظره إلى أنه طالما هو صاحب البيت، فمن الضـروري أن ينادي عليه بنفسه ويقول له: تفضَّل يا دريني، بل ويلحُّ في دعوته، هذه هي الأصول حسب فهم الدريني، وإلَّا لن يَتنْعْتَع من مكانه ولو انقلبت السماء على الأرض!

يبتسم أبي ويقول للشيخ:

- كده! ماشي..

وينادي عليه كي يتفضل والدريني متكاسل متردِّد كأنما هو ضيف – وليس شاهدًا في مجلس – ومُحْرَج من الدخول، وأبي وبتشجيع من الشيخ واعر

متحمِّل ويلحَّ في الدعوة، إلى أن خلع الدريني مداسَهُ على عتبة الباب وحمله بيده ثم وضعه في حِجره عندما جلس بين أقدام أبي هو والشيخ، اللذين أشارا له بأن يصعد ويجلس على إحدى الكنبات كسائر الجالسين، إلَّا أنه رفض:

- أنا مرتاح كده..

ولاحَظَ أن قدميه متَّسختان ففرك الطين الجافّ العالق بهما واحتار في كيفية التخلُّص منه، تلفَّت حوله ثم واراه في سيَّالته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وشرع الشيخ واعر في التحقيق:

- حُطّ إيدك يا دريني على المصحف واحلف إنك مش هتحوِد عن الحق.

- من غير حلفان، أنا معرفش الكدب..

- لا. لازم تحلف.

والدريني بإصرار:

- وأنا مش هعمِلْها ولو قطعتوا رقبتي، وعمري ما هدَّخَّل كلام ربنا في مسخرة وقِلَّة أدب.

ونظر في حِجْره وسكت وأكثر الجالسين يرمقونه برضا، فبحسِّهم الديني شعروا أنه رجل صالح وينزِّه القرآن عن قاذورات الناس، وشغل هو نفسه بأمر آخر، فبكل أريحيَّة أخذ يعبث بحافَّة يده في نسيج السَّجَّادة التي يجلس عليها، يحركه ببطءٍ ويعود به إلى الاتجاه المعاكس معجبًا بتموُّجات ألوان النسيج مع كل حركة يفعلها، والشيخ يرمقُه من فوق الكنبة بدهشةٍ وضيق، والناس تحثُّه على أن يتجاوز فالدريني رجل مضبوط ولا يعرف الكذب، أخيرًا تجاوز وطفق الدريني يحكي ما شاهده..

قال: إن اتفاقًا جرى بينه وبين الحاج دِرْبالة، بأن يلقاه بعد صلاة الجمعة على رأس الغيط بلفَّة حبال أعدَّها له..

الحاج دربالة كان مدْعُوًّا لحضور الجلسة، رفع يده مؤكِّدًا:

- حصل..

أشار له الشيخ بأنْ شكرًا على الإيضاح، وطلب من الدريني أن يستمر..

- ورُحت على حسب الاتفاق، بس إمتى، قبل المعاد بييجي ساعتين..

ويُسْهم لحظاتٍ مفكَرًا ثم يقول:

- كنا إمتى إمتى بالظبط، آه.. الضُّحَى كده والشمس لِسَّه...

والشيخ يستحثُّه كي ينجز، والدريني هادئ مستريح وحميته في الكلام ضعيفة:

- وطبعًا ملقتش حد وأنا واحد بَصْحَى من الفجر وكسلان وعَمَّال أتَّاوب، قلت أدخل حوض الدُّرة ده اللي جنبي وأمدِّد لي شوية، حكِمْ يا عمّ الشيخ لما النوم بيكبس الواحد ساعتها..

يقاطعه الشيخ:

- حكمْ إيه وبتاع إيه، يا خويا خلَّص.

والدريني بكُلِّ هدوء:

- حطِّيت لفّة الحبال تحت راسي وغفِّلت، كتير شوية اللـه أعلم، لحدّ ما قمت مرة واحدة وزيّ المخضوض.

والشيخ يزوم ويتعجَّله بغضب:

- آه.. خلاص وبعدين؟

والدريني يكرر ما سبق أن قاله وعيناه مُتَّسعتان من الدهشة:

- آه واللـه اتخضيت!

والشيخ ينشال وينحطّ فوق الكنبة:

- الصبر يا رب..

وأخرج حبَّة دواء محفوظة في علبة كبريت فارغة بجيبه، ابتلعها بالمتبقِّي من ماء في الكوب الذي أمامه، والدريني يسأله:

- مالك، كفى اللـه الشر..

والشيخ بغضب:

- خَلِّيك في حالك وكمِّل.

- مفيش، قمت مخضوض من الهيصة والضحك والفرفشة اللي دايره في الـخُصّ اللي جاري، مانت عارفُه يا عمّ الشيخ، خُص عيلة عبادة.

ويرفع رأسه للشيخ بنشوة:

- وحزَّر فزَّر بقى مين اللي كانوا قاعدين فيه ونازلين فرفشة؟

- أحزَّر وافزَّر إيه يا دريني، ما كل الناس عارفة مين اللي كانوا في الخُصّ! وبعدين انطق وقُول إيه اللي أنت شفته؟

فسكت الدريني، والشيخ يعاود الأسئلة:

- يعني زكريا مدّ إيده على نعناعة؟ حصل حاجة بِنَاتهُم؟

وانكسف الشيخ من الكلام المباشر:

- حاجات كده ولَّا كده، حاجات يا بني آدم..

- يمكن ويمكن، اللـه أعلم..

- شُفت ولَّا مشفتش؟

- ربَّك ستَّار..

والشيخ بغيظ:

- اللَّهُمَّ لك الأمر من قبل ومن بعد..

وينظر إلى كوب الماء الذي أمامه فيجده فارغًا؛ يصيح:

- يا ناس حد يلحقني بكُبَّاية ميَّه، هموت هفْطَس في إيد الدريني.

ويتجه له من جديد:

- طَبْ خلِّينا من دي، سمعت الكلام اللي دار بينهم؟

- سمعت..

- إيه بقى الكلام اللي كان بيتقال؟

- آهو كلام..

والشيخ في حيرة، لا يعرف كيف يتصرف، أيركُلُه ببوز الحذاء في بطنه، يضربه على رأسه بمطفأة السجائر، والدريني بعدما شعر بأن الخناق يضيق عليه:

- بصراحة كده، كلام من اللي بالي بالك..

- بالي بالك إيه يا جدع إنت، ما تنطق.

وعباس شقيق نعناعة يتقلقل من الغضب على سيرة أخته التي ثُلاك؛ قام رُبْع قُومة وجلس وأحد أقربائه يلكزُه بمرفقه كي يهدأ ولا يضيع الحق الذي له بتهوُّرٍ أهوج، وهبَّ المهيلمي واقفًا غير أن أباه جذبه من كُمّ الجلباب، ورمضان شقيق حسنات يتابع انفعالات المهيلمي دون أن تبدُر عنه ردَّة فِعل دفاعية عن زكريا، الذي كان على وشك الإغماء والفأر الواقع في المصيدة أفضل منه حالًا.

والشيخ يلاحظ كُلَّ هذا ويدوِّنه في رأسه، وبعد عدة ضغوطات أُجريت على الدريني نطق أخيرًا:

- كان بيقولَّها: يا وزَّة، يا بطَّة، يا قُمع سُكَّر، وحاجات زَيّ كده.

لم يتحمَّل المهيلمي:

- وزة وبطة! آه يا زكريا يا دُون..

ويشخص ببصره نحو الدريني:

- وإيه تاني يا سي دريني؟، كمِّل كمِّل..

لم ينتظر منه إجابة، استدار للشيخ:

- وصلِّي على النبي بقى يا جناب القاضي، الراجل ده (ويشير بإصبعه إلى الدريني) سمع وشاف حاجات كتير ودا عرض وشرف، أنا عايزك تقرَّره صَحّ ياتسيبهولي أقرَّره أنا بنفسي، وهيَّه حاجة من اتنين..

وضاع منه بقية الكلام، فسهَّم لحظاتٍ مُحاولًا التذكُّر ثم انطلق:

- آه حاجة من اتنين، يا المدعوق زكريا ينكرِش من البلد، يلِمّ حاله ومحتاله ويرحل، آو.. يقعد وسطينا ليه، يدوس على شرفنا واحنا نتفرَّجوا عليه، لا لا، يعاوِد هو وأُمُّه للبلد اللي اتحدفوا علينا منها.

ويبدو أن حشـرةً لدغته من أسفل هدومه؛ أدخل كفَّه من فتحة السيَّالة يحكُّ موضع الإصابة بغيظٍ ثم أكمل:

- ولو مش عاجبكم الحل ده، يبقى خلاص قُصّوا القعدة واحنا هناخدُوا حقِّنا بمعرفتنا.

وعباس وراءه مخاطبًا الشيخ واعر:

- آه ناخدُوا حقِّنا بمعرفتنا.

ثم استدار إلى المهيلمي:

- بِسْلَم فُمَّك يابْن خالتي، هو ده الكلام الصَّحّ.

ورمضان شقيق حسنات والمفروض أنه الداعم الأول لزكريا، يدلق حفنة جاز فوق رأسه هو الآخر:

- لا لا أعوذ باللـه، أنا مكُنِّش فاكر إن الحكاية كده، إلَّا العِرْض والشرف يا ناس..

والشيخ يرمقه بعينيه رمقةً واضحة، وتفركشت الجلسة إلى إشعارٍ آخر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

وبدأ الشيخ في البحث عن حَلٍّ لهذا المَأْزِق..

من السهل عليه الاعتذارُ وغضُّ النظر نهائيًّا عن هذه المشكلة، يفعل ما فعله العمدة، وله عذرُه؛ وقته ثمين ومشاغله كثيرة، ليس عنده وقتٌ للمهيلمي ورمضان ونعناعة وهذا الكلام الفارغ، ناهيك عن أن زكريا بالفعلة التي فعلها لا يستحق المساندة، فالشيخ رجلٌ فلّاح والشرف عنده غلاوته من غلاوة أي عيِّل من عياله، ليس كل الشرف طبعًا! شرف النسوة والبيوت وهذه الأفعال التي تُشين حتى ثالث ورابع جَدّ..

صحيح أن ثلاثة أرباع ثروة شيخنا من السُّحْت والمتاجرة بأقوات الناس، وصحيح وصحيح أشياء أخرى عن الشيخ لكن كل هذا يمرُّ ولا أحد يفكر في تعييره به، هذا حال الدنيا وكل الناس هكذا، لكن إلَّا العرض والشرف، الشيخ وغير الشيخ دوغري في هذه المسألة ويستحيل أن يقبلوا من أحدٍ تلويثها.

ولا يقُل أحد إن زكريا ونعناعة لم يفعلاها، فعلاها وفعلاها، همَّا ببعضهما ولولا العيال لأكملا، مسألة مفهومة ولا تغيب عن رجلٍ محنَّكٍ كحضرة الشيخ، تقصَّى وسأل وتأكَّد، ولم يبالِ بشهادة الدرينى أو حتى وضعها في طرطوفة دماغه، فالدريني إما أنه غشيم أو كان يلاوِع وحَذرًا في الكلام، غريب عن البلدة ويحتاط خوفًا من الدخول في مشاكل مع هذا أو ذاك.

هذا ما كان يحدث به الشيخُ نفسَهُ، ومع ذلك صمَّم على إنقاذ زكريا..

ليس لأنه زكريا، يغور زكريا وجد زكريا، المسألة تخص الشيخ ذاته، فكيف تستعصي عليه مشكلة وهو غضنفر المصالحات، فضلًا عن انه تقزَّز من الأوغاد الثلاثة الذين صالوا وجالوا أثناء الجلسة وأراد تلقينهم درسًا، رمضان أولًا ثم المهيلمي وعباس، هكذا بالترتيب وفقًا للدناءة، غربان، كواسر تحلق في السماء لمحت طريدةً وتريد أن تنهشها؛ المهيلمي هذا القحف الذي يودُّ ركلَ زكريا والاستمتاع وحده بنعناعة، ورمضان الذي يلاحظ ويودُّ الاستفادة من هذا الموقف، فرصة ولاحت هل هو أبلَه حتى يدَعَها تُفلت من يده! العبيط فيهم والإمَّعَة في الوقت ذاته هو عباس شقيق نعناعة وصاحب (الرِّمَّة) مثلما يُقال، لا نيَّات ولا تخطيط، وأيضًا لا نخوة، في الخير موجود وفي الشرِّ موجود وفي الاستفادة أول مَن يقف بالباب.

طفق الشيخ يأخذ ويعطي مع نفسه إلى أن فهم الأمر على هذا النحو، وأول خطوة خطاها أنه التقى سِرًّا بحسنات.

سألها بحسم:

- رايده جوزك ولَّا مش رايداه؟

وهي بتلقائية ومن دون تفكير:

- أُمَّال يا عمّ الشيخ، دا هو اللي فاتح البيت ومهما حصل دا أبو خيري..

- يعني رايداه..

من الخجل تهبط بجفنيها مُخفيةً عينيها، الشيء الوحيد الحُلْو فيها:

- آه رايداه..

- ورمضان أخوكي إيه الحال؟ متطمِّنة من ناحيته..

- رمضان ولا عمري أطمِّن له؛ طمَّاع وياكل مال النبي وإن كان عليه عايز ينهشنا نهش.

يحُلُ دون أن تسترسل:

- خلاص خلاص نبقى متفقين، ودلوقتي عايزاني أطلَّع زكريا منها ولَّا ليكي قُول تاني؟

وبسبَّابته وعينيه المُتوهِّجتين:

- كلُّه في إيدي..

- يا ريت ياعمّ الشيخ، دا البيت مضلِّم من غيره.

- يبقى تفطَّمِيه، تقوليلُه خلِّي بالك من عمك الشيخ وكل كلمة يقولها توافقه عليها.

- ماتقولُّه وتوعِّيه بنفسك إنت يا عَمّ الشيخ.

- مينفعش، دا طرف قُدَّامي وتتمسِك عليَّا لو اتداولت معاه في السر.

وهي بِحَيْرة:

- بس دا فايت البيت من ساعتها، قاعد عند خالتي فَطُّوم.

- تتصرَّفي، تروحيلُه تبعتيلُه تقولي لأمه وهيَّه ترسِّيه، المهم إن دا يحصل.

- حاضر يا سِيْدَنا حاضر.

تعجبه كلمة (سِدْنَا)، وتميل هي على يده تُقبِّلها، لا يمانع مستمتعًا بما تفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أما رمضان، فبعد دفقة الشهامة التي أبداها أول الأمر، شعر بمَن يلومه..

هاجسٌ طفق يهمس في أُذُنه:

أنت رجل طيب يا رمضان..

واللـه طيب وقلبك كما اللبن الحليب..

ما هذا الذي فعلتَهُ يا رجُل! وتجيء بنُّبوتك وتحلف باللـه لحسنات وللكركوبة فطوم أن زكريا في حمايتك، لا.. وتجرجر وراءك ابنك حجازي بنُّبوته هو الآخر، أنت مدهش يا رمضان!

(طَبْ) قُل لي باللـه عليك، ما المُتوقَّع مما فعلت؟

واحدة من اثنتين، إما أن تفلقَ رأسَ أحد أو تُصاب أنت نفسك، وفي الحالتين مآلُك البهدلة، السجن يا خفيف حيث شلاليت العساكر والرَّغْد واللَّكْز، أو ترقد في المستشفى، وثأر وعداوات طبعًا مع أهل نعناعة..

ومَن يدري إلى متى! فالخَصْم الذي أمامك: دَعْنا من عباس، عنزة ولا يُحسب له حساب، الخصم هو المهيلمي، الكبش النطَّاح بشهادة ألف واحد، أتريد أن تضيع فيها والبرنس زكريا هو المستفيد، أنت تضيع وهو يمرح في دكانه وبيع وفلوس ومكاسب..

أنت حُرّ؛ افعل ما يحلو لك!

أنا قلت كلمتي وحالًا سوف أمضي، وأنت وحدك الذي سوف تشـرب العلقم، وكل ما ستتحصَّل عليه قرشان تضعهما لك أختك حسنات أسفل المُخدَّة، مجرد إحسان، هل لديك تفسيرٌ آخر؟

أنت تفديهما بدمك وروحك يا غلبان وهما يقدمان لك حبَّة فلوس، هذا إذا قدَّما! فقد يكتفيان بكلمتين، وكلما التقاك زكريا هلَّل بأعلى صوته: بارك اللـه فيك يا أبا حجازي، عفارم عفارم، نِعْمَ الأخ ونِعْمَ السَّنَد، واللـهِ واللـهِ قمت بالواجب وأكثر..

وكما البخار يتلاشى هذا الهاجس، وينفعل رمضان محدثًا نفسه:

يا سلام!

نِعْمَ الأخ ونِعْمَ السَّنَد وعفارم عليَّ، نعم.. نعم.. يا زكريا، هل تحسبني لطخًا!

غلِطت يابْن فطوم وعليك تحمُّل النتيجة، وأختي هي والتعيس ابنها لهما اللـه..

ودَعُوني أنا في حالي..

ظروفي لا يعلم بها إلا اللـه، مصائب كالتلال فوق رأسي ومع ذلك حامِد ربِّي وعلى الصِّراط المستقيم، من البُكُور أسحب حماري والعنزتين وإلى غيطي ومصلحتي هي مصلحة بيتي وعيالي، وأختي حسنات الحمد للـه قمت معها بالواجب، سرير وتسريحة ودولاب وطشت وثلاث كنَبَات، ولا حمد ولا شكر يا أولاد الأفاعي، قلتما لي بعدها: الجهاز كله مضروب!

هل حدث ذلك أم أدعي عليكما، واللـه حصل واللـه قلتما، وسنة، لا لم نصل حتى للسنة هي عشرة أشهر واشتريتما عفشًا جديدًا، فلتشتريا معكما فلوس! وابتلعت أنا ريقي وسكَتُّ، ماذا أفعل، رجل على باب اللـه وهذا كل ما كان في مقدوري وقتها..

وهل نسيتِ الكردان يا ست حسنات..

هل نسيتِهِ يا بنت أمي وأبي!

قلت لكِ أنتِ والجربوع زكريا إنه ذهب، لم أقُلْ عيار (19) ولا (21) ولا (24)، تركتها عائمةً، اسكتا، مَرِّراها لي، لا.. تذهبان من ورائي إلى صائغٍ في البندر وتفضحانني في كل بيت، وما العيب في الذهب القشرة، أليس كردانًا هو الآخر وثلاثة أرباع نسوة البلدة يضعنه على صدورهنَ!

وتعالي هنا وقولي لي، مالمهر الذي دفعه الشملول زكريا حتى أشتري لكِ كردانًا وخلخالًا وغوايش ذهب في ذهب، انطقي.. تكلَّمي..

وماذا بعد..

قلت في نفسي، زوَّجتكِ واسترحت، قلت، آه واللـه قلت..

ويا سبحان اللـه! أول ما أهِمّ بجمع القطن أو الفول السوداني، واللـه أول! ترتدي جلبابك وامرأتان من جاراتك الأوساخ تسحبانك كزكيبة القطن وتدخلين عليَّ ولا سلام عليكم، عليكم السلام، أبدًا لا تقولينها! التكشيرة على وجهك وتسألين فقط عن إيجار الكام قيراط التي لكِ، وأنا أقول في عِبِّي: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللـه، هل الدنيا طارت! وطبعًا لم أكن أدفع، ولن أدفع ولو انقلبت السماء على الأرض! من أين؟ أردُّكِ بالحسنى وأنتِ مراسيل في مراسيل، عمك وخالك وخالتك..

اختشي.. عيب..

وانتهينا من هذه بعد أن عرفتِ أنكِ لن تأخذي مني سحتوتًا واحدًا؛ تحاوريننى بعدها طالبة حقَّكِ في البيت!

أيّ بيت يا بنت المركوب؟ أليس لكِ عينان تَرَيْن بهما حالي..

وساعة الشدة تقولين: هيَّا يا رمضان.. أغثنا يا رمضان..

لا. لا. انتهى. الغمامة خلاص انزاحت عن عيني..

ومع ذلك أنتِ أختي ولا أودُّ أن أراكِ أرملةً أو زوجة رجل معوَّق، فأهل نعناعة مصممون على ذبح زكريا أو أن يكسروا له رِجْلًا أو ذراعًا، وأفضل حلّ للخروج من هذا المَعْرَز أن ينكشح نهائيًّا من البلدة.

آه واللـه! اسمعيها مني، فأنا الأدرَى بالصالح..

يغور هو والخنفساء أمُّه، يرجعا لأصلهما! أنسيَت فطوم يوم أن جاءتنا بهلاهيلها، ونومها هي والمزغود ابنها في الخرابات وأمام الجوامع!

مع ألف سلامة، وقبل أن يرحلا ينكتب الدكان باسم خيري..

ولا تحسبي يا حسنات – ولو للحظة – أن الدنيا سوف تنخرب، أنا موجود وسوف أدير الحركة..

فَكّري يا بنت الحلال..

ويهشُّ طيف حسنات عن رأسه، قاصرًا الكلام على نفسه:

وأبرُك أنا على الدُّكَّان..

أقف فيه أنا وابني حجازي، وأصرف منه على أختي وابنها وما يتبقَّى لي أنا وعيالي، ألستُ أشقَى!

وعندما يكبر خيري ويوسوس له أولاد الحرام بكلام ماسخ ليفرقوا بينه وبيني؛ رُفقاء السوء موجودون والحمد للـه، غباشي ورزق ومحمود الضَّوّ، شيخ الجامع ذاته لو ترك نفسه لهم لجعلوه مسخرة!

وأُقنع أختي حبيبتي حسنات أن يستمر في التعليم؛ العلم نور وغدًا يصبح موظَّفًا في الجمعية الزراعية أو الوحدة المحلية، مالُه هو والدكاكين والبقالات! وإذا تقبَّلا مني النصيحة هو وأمّه اللـه أعلم متى يتخرج، قطعًا عندما يصل لسِنّ الثلاثين فالولد بهيم، له شارب وما زال في الصف الثالث الإعدادي، وإن كان لا يريد تعليمًا ولا مدارس لا مانع، هذا خيارُه وابنتي سعدية

موجودة، بغلة وسمينة وتليق، والكل تحت جناحي وأنا العرَّاب، وإن فكّر زكريا يومًا في العودة المَدَاس موجود، المهيلمي أيضًا موجود..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وما العمل الآن..؟

الدريني هذا لا لزوم له في الدنيا، ما هذا! إوَّزة، بطة، قمع سكر!

كلام لا يقدم ولا يؤخر، وكثيرًا ما يُسمع بين الصبيان والبنات وهم يجمعون القطن أو يُنقُّون الدودة وعلى السكك وفي المولد، لا تثريب عليه وعادةً ما يمرُّ، لا يمثل تهديدًا لزكريا..

ويسأله الشيخ واعر، مَنْ قال إنه شيخ، شيخ على مَنْ؟ (إخِّيه) عليكِ يا دنيا تعطي الناس بلا حساب، وأنا لا شيء! أنا الكادح المثابر الذي يصلِّي كل الفروض وفي الصيام الحمد للـه، أما الزكاة فلا، فلننسَ هذه الفريضة؛ لا تناسبني..

النهاية.. يسأله القرد واعر إن كان زكريا مدَّ يده على نعناعة، والسؤال مجرد كلمة على (الطاير)، لا أعاده ولا كرَّره ولا جاءه من اليمين ومن الشمال مثلما يفعل مع باقي الناس، لا شيء من كل هذا، واعر هذا ليس محلّ ثقة..

والدريني يجيبه:

- إنت عايز الصراحة، أنا مشُفْتِش حاجة..

صراحة مَن يا كَذُوب!

واللـه واللـه لو أنا القاضي لأخرجت الحقيقة من (حَبَابِي) عينيك..

المهيلمي هو المحترم ووالله واللـه مرة ثانية كان عنده حق عندما لم يعجبه الحال، وطلب من هذا الواعر أن يقوم باستجواب الدريني بنفسه..

وكأنك أيضًا يا أخي العزيز يا مهيلمي كنت تقرأ ما في رأسي عندما اقترحت كَرْش زكريا من البلدة، بورك فيك! هؤلاء هم الرجال..

امْضِ يا رجل وأنا وراءك، لكني لستُ حلُّوفًا مثلك..

أنا أقول الكلمة وهي الدواء، قلت: إلَّا الشرف والعِرْض، وهل في هذا غلط! هل يُعيبني أحد، بل سوف يقول الناس عني فيما بينهم: رجل يعرف الأصول، يغضب للحق ولو على أهل بيته..

فأنا رجل لا أحشو البنادق التي تصيد ولا أضغط على أي زناد، عيناي فقط على الطائر الجريح وهو يترنَّح في الفضاء وأمدُّ له جلبابي ليسقط في حِجْري أنا لا في حِجْر الصياد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكتفِ رمضان بما يجول في صدره، تصرَّف، بعث مرسالًا في الخفاء للمهيلمي بأنه لا يرضى بالغلط بتاتًا، وميعادهما الجلسة الثانية حيث سوف يسانده بكلامٍ بين السطور..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

فوجئ الجالسون بحضور عَمّ دردير (المأذون) جلسة الصلح الثانية..

وَنَدَت عن البعض عدة تعليقات، عن سبب قدومه! والمهيلمي ورمضان بالذات الفأر يلعب في عبِّهما ويتبادلان نظراتٍ تحتية، فالرجل لا علاقة له من قريب أو بعيد بورطة زكريا ونعناعة كما أنه كبير في السن ونادرًا ما يخرج من بيته، وإذا خرج فإمَّا على عكَّاز أو فوق ظهر دابَّة وعيِّل يسحبها له.

وضع دردير دفتره وأوراقه على المنضدة وجلس بجوار أبي والشيخ واعر، كان متعبًا أو كسلانَ على ما يبدو فمن أول ما جلس بدأ في التثاؤب وارتخت عنقه بالكامل إلى أسفل، وشرعت عيناه في الغَفَيَان، والغفوة لا تزيد على ربع دقيقة، غَفَا ست أو سبع مرات إلَّا إذا كان أكثر وأنا لا أشعر، والجالسون هم أنفسهم جمهور المرة السابقة وبنفس الجلابيب والطواقي والتلافيع المتدلية على الصدور وعشرون مَدَاسًا على الأقل تملأ عتبة الباب، وكانت في يد المهيلمي (زُقْلَة) من النوع العَفيّ ولو هوى بها على رأس إنسان لقضت عليه في الحال، فحلف عليه أبوه إن لم يخرج ويرميها في الشارع ليبهدله أمام الناس؛ أذعن وخرج بها وأبوه يتفل في أُذن أخيه (عم المهيلمي) الجالس بجواره:

- شوف التيس ابن الكلب هيودِّينا في داهية!

والعمُّ مستاءٌ هو الآخر وعندما رجع المهيلمي حاصراه، أجلساه بينهما، واتخذت أنا موضعي خلف الباب كالجلسة السابقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعلَّقت الأبصار بالشيخ واعر عندما هَمَّ بالكلام..

استهلَّه بالصلاة والسلام على سيدنا محمد، ثم قال إننا نودُّ اليوم الانتهاء من هذه المشكلة؛ تعبنا واللـه منها، وأرجو ألا تحدث شوشرة وتجاوزات كالتي أحدثها البعض المرة السابقة.

ولم يُشِر لأسماء هذا البعض، تنقَّل ببصره فقط بين الجالسين ومَنْ على رأسه (بَطْحَة) حتمًا سوف يشعر بها، والمهيلمي ورمضان أكيد يفهمان ويتحاشيان نظراته، والعمّ دردير لا يزال في حوزة مَلَك النوم ولا يدري بما حوله.

أخرج الشيخ سيجارةً من عُلَبته الرُّوثمان غيرَ أنه عدل عن إشعالها، وتوجَّه للحاضرين من جديد: واعذروني يا جماعة فأنا الآخر أخطأت وربما أكون السبب في الخَلْط واللَّبْس الذي حدث، ولو كنت أبلغتكم بما عندي يومها لكُنَّا ارتحنا وانفضَّ هذا الموضوع، وما كنا سمعنا السخافات وقِلَّة الأدب من البعض.

والمهيلمي يهمس في أُذُن أبيه:

- بيقول علينا قُلالات الأدب.

وأبوه يلكزه بيده:

- مش إنت.. مش إنت.. قصده على ناس تانية.

- ناس مين؟ هو أنا حمار، الكلام عليَّا.

وعباس شقيق نعناعة طاقيته مكبوسة فوق رأسه حتى آخرها ولا ينطق أو على وجهه أي تعبير، هذا الذي بدا عليه من أول ما دخل ولا أدري ما سوف يئُول إليه حاله فيما بعد.

وفي اللحظة نفسها، نفسها بالضبط، أشعر بيدٍ تجذبني من طَوْق القميص، فأنا ودُونًا عن أقراني كلهم، وسواء في الشارع أو حتى في البيت دائمًا بالقميص والبنطال، أحبُّ أن أبدو كالأفندي ومتميزًا بما أرتديه.

الذي كان يجذبني أخي الكبير الطالب بالكلية الحربية، ويُحذِّر ويُعنِّف على وقفتي كاللصوص هكذا وأنا أُعارض وأرفض..

فمَن يظن نفسه!

هل يحسب نفسه وصيًّا عليَّ، شطحتَ بعيدًا يا كابتن، فلستُ أنا الذي أقبل منك توجيهات، أبي ذاته أسمع منه وأغالط، وتجيء أنت! هزُلَت..

ويهددني بأنه سوف يبلغ أمِّي حالًا..

أمي! افعل ما يحلو لك، فما الذى سوف تفعله أمي، أقصاها قَرْصَة في ذراعي..

وأدفعه بيدي كي يبتعد بعد أن دخل شيخنا واعر في الأشياء المهمة، أشعل سيجارتين وراء بعضهما البعض والكلام والدخان يخرجان من أنفه وفِيهِ:

- اللي حصل وربنا الشاهد على كلامي، إن زكريا كان جاني قبل الفصل البايخ ده ما يحصل.

ويُقطَب حاجبيه:

- قصدي يعني على حكاية الخُصّ، وأنه هو ونعناعة كانوا مع بعض واللَّتّ والعَجْن والكلام الزايد اللي اتقال.

ويتساءل:

- إلَّا هو فين الواد زكريا؟

فيهبُّ زكريا واقفًا:

- نعم يا سيِّدنا، تحت أمرك يا سي الشيخ.

كلمة (سي) و(سيدنا) وسائر الكلمات التي تعبر عن الانبطاح، هذه الكلمات كانت تُلْهب مشاعر الشيخ فهو أساسًا من أصول بسيطة، أهلُه كلهم غلابة وهو الوحيد (أبو زيد الهلالي) الذي فيهم، فبعقله المتفوِّق وأمواله الكثيرة صار شخصًا آخر، هو تقريبًا أغنى واحد في البلدة إن لم يكن في البلاد التي حولنا غير صفات أخرى محمودة، غير أن الحلو لا يكمل والجبَّار لا بُدَّ له من نقاط ضعف، ومن هذه النقاط: أنه إذا تعامل معه أحد وبان من كلامه أو حتى من نظرات عينيه أن الشيخ بالنسبة إليه ليس سوى الهلفوت واعر الذى كان يمشي حافيًا في أول زمانه، فساعتها يصير كالقِطِّ الذي دِيسَ على ذيله..

ونقطةُ ضعفٍ أخرى: أنه إذا عومل باحترام وتبجيل وعلى أنه عينٌ من أعيان البلدة، عندها يصبح كسطل اللبن الحليب المَلآن إلى حافته، تأخذ وتغرف منه حسبما تشاء، واللئيم زكريا يفهم ذلك ويقدم له القرابين:

- خدَّامك يا عَمّ الشيخ وتحت تراب رجليك.

- مش إنت جِتْنِي يا ولد من قيمة خمس ست أيام، وقُلْتلِي إن ليك غرض تطلب إيد نعناعة؟

وزكريا الناصح يلتقط السؤال ويتعرف على الوجهة التي يودُّ الشيخ توجيهه إليها:

- حصل يا عم الشيخ..

ولعثمةٌ صغيرة ثم يكمل:

- ساعة لمَّا جيتلك الدوَّار وبوست إيدك وقولتلَّك أنا ليَّه طلب عندك.

والشيخ يرمقه:

- وأنا قُلتلك إيه؟

والمهيلمي الذي يتابع الحوار كلمةً بكلمة يزوم بغضب:

- يا سلام! يا صلاة النبي! قراطيس إحنا..

وأبوه يلكزه بمِرْفقه في بطنه، والشيخ واعر ما زال مستمرًّا في هذه المسـرحية ويضـرب بقبضة يده على المنضدة بغضب موبِّخًا زكريا:

- لكن إنت يا قليل الأدب اتسرَّعت.

- غلطان ياسي الحاج غلطان، بس النيَّة كانت خير قلت أشاور اللي عليها الكلام وآخد رأيها الأول وأجيلك بعدها وأنا إيدي مليانة، وصدفة واللـه اتلقيت نعناعة عند خُصّ الحاج عبادة وقلت أسألها، إنما أعمل إيه في الناس اللي افترت علينا.

والنمس واعر يومئُ برأسه خفيفًا ولعدَّة مرات مدَّعيًا اقتناعه بما يقوله زكريا، وأنا من وراء الباب أتماهى مع هذه الفِرْيَة المحترمة ومسامُّ عقلي تتفاعل وتلتقط ما وراء كلامهما وتفهم، وأضرب بيدي على فَخِذِي منتشيًا..

فهمتُها! فهمتُ أنه ولا كلمة من الكلام الذي قالاه حدثت، وأنهما يحاولان اللعب على الجلابيب والطواقي التي تجلس ظنًّا منهما أنها لا تفهم، وصوَّر لي طيشي أنه يمكنني المشاركة، أفتح عليهم الباب وأقول إني أنا الآخَر وبالمصادفة كنت ألعب أمام دوَّار عَمّ الشيخ ورأيت زكريا داخلًا إليه، وأظلُّ أقول وأقول إلى أن يُفلت منها زكريا.

طيش طبعًا وخُيَالات صبيّ لم ينضج..

صبي يريد تجاوز عمره وأَخْذ مقعدٍ بين الرجال وأحداثهم الكبيرة..

غير أنِّي لم أفعل، خفت، لم أجرؤ، وأتخيَّل وجه أبي لو فعلت، لو كانت معه بارودة لأطلقها عليَّ..

وأنا في هذا الطيش والتداخل بين الخيال والعبث الذي يملأ رأسي، أسمع طرقات على القضبان الحديدية لإحدى نوافذ البيت البعيدة، فالحيز الذي أقف فيه كان خاليًا تمامًا ومحظور على النسوة الاقتراب منه طالما الجلسة منعقدة وأناس أغراب موجودون..

كانت أمي وبجوارها أخي الكبير، أبلغها (السُّوسَة) بما حدث بيننا! وهي احترامًا لأبي لا تستطيع رفع صوتها، تكتفي بالإشارات محذرةً كي أَدَعَ مكاني والشملول أخي يشجعها، تشير إلى عنقها بإصبعها وتحرك مُشط يدها الأخرى

في الهواء على هيئة سكين تقطع، وكأنها تقول لي: إن أبي سوف يذبحني مثلما تُذبح الدجاجة إن لم أتخلَّ عن مكاني.

قلبكِ أبيض يا أمي..

والله والله لو هدَّدني شمشون الجبار ذاته لن أدَعَ فرْجَة الباب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأعود إلى غرفة الكَتَب حيث المهيلمي الذي لم يعُد يتحمل:

- إيه دَه! إيه دَه!

ويقوم ربع قومة، كان في نيَّته استكمال الوقوف والزعيق والتشويح غير أن أباه أوقفه عند هذا الوضع، عمُّه أيضًا الذي يحيطه من الناحية الثانية لَكَمهُ في ظهره، ورغم ما فعلاه إلَّا أن لسانه استمر:

- إنت عايز توكِّلنا البالوظة يا عمّ الشيخ واعر، بقى إحنا بنقولولك عِرْضنا وشرفنا وانت تقول أبصَر إيه ومَدْرِك إيه!

وعباس شقيق نعناعة يتَنَحْرَر هو الآخر:

- حقَّة مش كده يا عمّ الشيخ، وهيَّه نعناعة ملهاش أهل علشان كل ده يِجْرَى وأنا نايم على وداني.

ويُبَرْطم متلفِّتًا حوله متوقعًا المؤازرة، الخائن رمضان شقيق حسنات هو وحده الذي آزَرَهُ، أومأ له برأسه إيماءة تأييد، والعمُّ دردير المأذون الذي استيقظ ودعك عينيه قبل دقائق يلتقط إشارةً من عين الشيخ وينخرط معهم وبالفصحى كعادته:

- يا ولدي يا عباس، الشيخ واعر في مرتبة أبيك وحتمًا كان في نيَّته إبلاغك وأخذ رأيك..

والشيخ واعر المَحْنيّ على المطفأة يهرس بقايا سيجارته، يؤمِّن على كلامه:

- معلوم.. معلوم..

ويستطرد العمّ دردير:

- والأمر الثاني الذي تجهله يا عباس، أن المَصُونة أختك امرأة (ثيِّب)، ويحقُّ لها بالتالي أن تزوِّج نفسها دون إذنك أو حتى مشورتك.

وعباس الذي اعتبر ما قيل إهانةً له:

- ثيِّب؟ إيه ثيِّب دي! اصحَى لكلامك يا عمّ دردير.

وهمهمةٌ بين الجالسين والمهيلمي يتعجب مِن كلمة ثيِّب، وعمه الجالس إلى جواره والحامل لإعدادية الأزهر يهمس في أُذُنه:

- ثيِّب يا مُغفَّل معناها كذا وكذا وكذا..

- يا سلام! ولا يدخل في دماغي كلمة واحدة من الكلام ده اللي انت بتقوله..

وأبوه الذي يتابع يهمس في أُذُنِه هو الآخر:

- علشان أنت جاموسة..

والخائن رمضان شقيق حسنات الجالس في الصف المقابل يقول للرجل أبو لِحْية بيضاء الذي بجواره:

- بيقول ثيب، بيستعبطونا الجماعة دُول..

وتزداد الهمهمة فأغلب الجالسين يجهلون هذه الكلمة غير أنها لاحت لهم كمَخرَج لهذه المشكلة، فهم إن كانوا نُصَّاحًا ودُهاةً شأنهم شأن الفلاحين البسطاء ليس في القُطر المصري وحده بل وفي عموم الكرة الأرضية، إلَّا أنهم دُهاة فقط في الدفاع عن مصالحهم وأقواتهم أما ما عدا ذلك هم أو أغلبهم مسالمون طيبون، يعرفون أن الشيخ واعر يتحايل، لكن يتحايل لماذا؟ للستر.. وهم مثله لا ينشُدون سوى الستر ويتلافون المشاكل.

والتقطوا أيضًا وبسرعة فهموا أن رمضان شقيق حسنات يصطاد في الماء العَكِر، والمهيلمي أبوه وأعمامه الاثنان وكل الجالسين على يقينٍ بأنه خسيس وسُمعته بطَّالة؛ لذا كانوا متجاوبين مع الشيخ، الأطراف ذات المصالح هي وحدها التي تعرقل..

والعمُّ دردير يوضح:

- ثيِّب أي ليست عذراء بل سبق لها الزواج، والست نعناعة ما شاء اللـه تزوجت وطُلقت عدة مرات أي ثيِّب بجدارة، والشرع يقول إنها تستطيع تزويج نفسها دون وَلِيّ، هل تودون مخالفة الشرع؟

والحاضرون يؤمِّنون على كلامه:

- لا. لا. نخالف الشرع، العياذ باللـه..!

ويتوجَّه بحديثه إلى عباس:

- أختك ثيِّب يا عباس..

وعباس بغضب:

- برضه بتقول ثيِّب، أختي محترمة وسِتّ الناس كلهم.

والشيخ واعر بعد أن مسح عدَّة حبَّات عرَق تحيط بجفنيه:

- اسمعني يا عباس، مش إنت أخوها..

- أُمَّال ابن عمَّها! آه أخوها وكلمتي هيَّه اللي تمشي.

- اسمعني اللـه لا يسيئك، كل الغلطة اللي غلطها زكريا إنه اتسرَّع وهو بنفسه اللي خدْ رأي نعناعة.

- يا صلاة النبي! هو دا بس اللي غلط فيه..

لا يعبأ به الشيخ، يتوجَّه إلى زكريا:

- آه يا غشيم! مش كُتّ بَعتّ والدتك الستّ فطوم وهيَّه اللي جسّت نبض نعناعة، إنت فاكر نفسك في البندر ولَّا مصر!

ويُشْهِر الشيخ أول أسلحته:

- وعلشان كده يا عباس وكمان علشان نقطعوا ألسنة الناس أنا شايف إنه ينعقد جواز زكريا على نعناعة، ويدفع مهرها مِيت جنيه بحالهم وتقبضهم في كفَّك.

وعباس الذي ليس في جيبه سوى خمسةٍ وثلاثين قرشًا، تنفرج سحنة وجهه ويتفاعل مع الشيخ:

- بتقول إيه ياسِي الشيخ؟..

والشيخ يناوله الضربة القاضية:

- ومش كده وبس، وأدبًا له يطلقها وإحنا قاعدين في الجلسة ويدفع المُؤخَّر خمسين جنيه وبرضه في كفَّك.

والحضور يتهامسون فيما بينهم:

- كلام معقول..

- آه واللـه معقول..

- ويبقى كَرَشْنا الشيطان، والحكاية يعني مَكَنِتشْ ثابتة قوي على زكريا..

- والشيخ واعر يُشكَر على كده..

- بس..

- بس إيه..؟

ويُشجِّعون عباس على القبول، وهو ليس في حاجةٍ لأيّ تشجيع ويتطلَّع في وجوههم قائلًا:

- خلاص ما دام انتوا شايفين كده..

والمهيلمي الذي كلفتته مهارة الشيخ واعر يهبُّ مزمجرًا:

- وهيَّه بِيعَة وشَرْوَة يا جماعة! لا. لا. وقَّف عندك إنت وهو..

والشيخ يزجره:

- خلِّيك في حالك يا مهيلمي، دا جواز وحقوق ووَليّ أمرها موجود.

وعباس منقلبًا على المهيلمي وجَدّ المهيلمي ذاته لو تطلَّب الأمر:

- آه اتلفت لحالك إنت، دا جواز وحقوق.

هذه المبالغ كارثيَّة بالنسبة إلى زكريا، تُعادل ثمن خمسة أجولة من الأرز بسعر الجملة وخمسة مثلها من السُّكَّر ومن أجود صنف، السِّنترَافِيش، وخمسين باكو شاي من فئة المائتين والخمسين جرامًا، فضلًا عن خمس أو ست باكتَّات من السجائر، هكذا حسبها بسرعة في رأسه.

وهذا كثير! كثير جدًّا! فالحكاية كلها أربع قُبلات ومجرد أنه مدَّ يده ولمس، أيَّ خراب بيوت هذا! لكن ماذا يفعل؟ الدفع أم قطع رقبته وكَرْشُه من البلدة، الدفع طبعًا..

وعُقِد الزواج والطلاق في نفس الجلسة، والعم دردير يوضح لزكريا:

- الطلاق رجعي يا ولدي، وتستطيع أن تردَّ نعناعة إلى عصمتك من دون مَهْر ولا كَتْب كتاب طالما هي في العِدَّة.

وعباس الذي لا يشغله الشرع، وإنما الفلوس الفلوس ذات الطَّعم اللذيذ:

- وهو يقدَر يقرَّب منها دا أنا كُتِّ أكسر رِجْله، أنا هحبسها في البيت طُول ما البتاعة دي اللي اسمها العدَّة لسَّه شغالة، وإن كان عايز يردَّها يجيلي بيتي بعد

ما تخلص العِدَّة وبمهر ومؤخَّر وكتب كتاب جديد.

والعم درديـر الرجل الطيب يقول:

- وتتجرَّأ على شرع اللـه هكذا يا عباس يا ولدي! لا حولَ ولا قوةَ إلا باللـه..

ويضـرب بكفِّه على فَخِذِه مكملًا:

- واللـه واللـه هذا الذي يحدث من العلامات الصغرى للساعة!

وأغلب الجالسين، إن لم يكن كلهم، يتلفَّتون لبعضهم البعض وليس على ألسنتهم سوى كلمة: إخص، إخص، ورمضان انهارت أحلامه وفي حالة ذهول أما المهيلمي فلا يصدق أن الزغلولة نعناعة طارت من يده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء كنتُ أجلسُ بين أمِّي وأبي، وهي تسأله:

- وعملتوا إيه في حكاية نعناعة؟

يشير لها بضغطةٍ من أسنانه على شفته السُّفلَى بأن تغلق هذا الموضوع، مُحرَجًا من الإجابة أمامي، صغيرٌ في نظره ولا يريد لفت انتباهي إلى هذه المسائل الحساسة التي تخُصُّ الكبار، وهي، بالزُّور، تُجاريه وتدَّعي الامتثال للتحذير.

لطيفٌ أبي هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

أفلتَ زكريا، أما عدلي وفهيم لقيَا نهاية مؤسفة..

وريحانة هي السبب؛ سفيهٌ من سفهاء بلدتنا أُعْجِب بها وظلَّ يلاحقها حتى أودى بالبيت كله، من الست دميانة إلى الحفيد إبراهيم..

ريحانة – واللـه – كانت غلبانة ومرتاحة في بلدتنا، وكل يوم بعد أن تفرغ من شغل البيت تضع ابنها في حجر الست دميانة وتخرج بالمرة والمرتين، ليست كالكبيرات في السن اللائي لا يبارحن بيوتهن ليلًا ولا نهارًا، لا تزالُ صبية، اثنتانِ وعشرون سنة، سِنُّ الحركة والهُرْمُونات النَّشِطة، كما أن دميانة امرأة صعبة، الشفقة والرحمة أكيد مطلوبان لها وهذا ما تفعله ريحانة غير أن العجوز مُتعِبة؛ تحشر نفسها في الصغائر: الدجاجة أُمّ ريش أبيض في أسود باضت، فأين البيضة؟ أريدها حالًا وهنا في حِجْري، والعنزة التي كسرت الطبق الفخَّار، ولماذا لا تكسـره، تكسـره وتكسـر أبوه والغلط غلطك أنتِ يا ريحانة! لم تحبسي بنت الكلب (الفَسُودة) هذه في الشونة، وقطة الجيران هذه التي تتمشى في البيت كما لو أنه بيتها، طبعًا طبعًا معها حق فالبيت سائب؛ أنتِ طول النهار أمام المرآة وهي تفعل ما يحلو لها..

وتشخط فيها: اخطفي رِجْلِك لأُمّ فؤاد وقولي لها خالتي دميانة زعلانة، عيب، القطة تخطف الكتاكيت..

تقول لها ريحانة: أُمّ فؤاد كفيفة وأستحي أن أقول لها هذا..

تجيبها: كفيفة غير كفيفة اذهبي، ألا يوجد معها نسوة في البيت، اشتكي لَهُنَّ.

وعندما ترفض ريحانة الذهاب كانت تقذفها بما في يدها أو تحثو عليها التراب وريحانة تتحمَّل، ست كبيرة والدنيا كثقب الإبرة في عينيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وإلى أين تخرج ريحانة؟

مشاوير بسيطة، تقضـي طلبات، فإما إلى الدُّكَّان الذي على رأس الحارة: وباكو شاي يا عمّ شحاته، علبة كبريت، قمع سُكَّر، لتر جاز، أو إلى أُمّ درويش التي تفرش في الشارع، حيزبون هي الأخرى والنظر اللهم الطف بعبيدك، متران وبعد ذلك طَشاش، ويا سبحان اللـه تعرف ريحانة بالذات من مسافة..

تسوِّي التراب بكفِّ يدها وتَبشُّ في وجهها:

- اقعدي.. اقعدي.

وتُلْحقها بعبارةٍ أخرى:

- يعني مَحدِّش شافك لا امبارح ولا أول امبارح.

وسهاري من قِبلي وبحري وعن عدلي والست دميانة، وعن ابنها درويش خفير الطلبات[7] في النقطة:

- بيبرُم يا بنتي على كعابه طول النهار، من السوق لبيت الظابط لدوَّار العمدة..

وتُشَلْشِل بذراعها:

- عامل زَيّ عربية السكة الحديد رايح جاي رايح جاي، ومفيش غِدَا ولا حَدّ بيِلّ ريقه بكلمة حلوة لحَدّ ما انسخط يا عيني وبقى قَدّ زِرّ الكوسة.

- وبيسترزَق على كده يا خالتي من المشاوير دي؟

- بيسترزَق مين! بس هُمَّا يبطَّلوا زعيق فيه.

وتضحكان ثم تبتاعُ منها ريحانة طلبات البيت: طماطم، كوسة، لِفْت، باذنجان..

أُمُّ درويش امرأةٌ طيبة، تحنو عليها وساعات ترفض أخْذَ ثمن الأشياء المَبِيعَة، وإن أخذت منها فبالضالِّين وبأقل مما تبيع للناس، وهكذا للـه في للـه..

تذهب ريحانة أيضًا إلى دكَّان زكريا، لا تتلكَّأ هناك، ليست من صنف نعناعة وهذه الأشكال، تأخذ المطلوب ولا لفتة إلى اليمين أو الشمال، ولم يفكر زكريا ولا مرَّة في اللعب عليها؛ يعرف أنها امرأة جادة ليس لها في الخَبْص والبصبصة.

تجيء إليه فقط لتروِّح عن نفسها بزجاجة (ريحة)، عُلبة بودرة، غويشة، وإن كانت جُنَّت مرةً وابتاعت منه زجاجة كينا..

تضع هذه الأشياء في صدرها وتزُمُّ عليها أو تخبِّئُها أسفل خيار وباذنجان أُمّ درويش، فالست دميانة خاصةً عندما يكون مزاجُها عَكِرًا تقوم بتفتيشها، وما هذا؟ ولماذا؟ وأضعتِ فلوس عدلي وشقاه على الكلام الفارغ..

تنصَّحت ريحانة بعد ذلك، تشتري كيس ملبَّس أو تُوفِي وكَرَامِلَّة أو حفنة من براغيث السِّتّ[8]، وتضعها بشكلٍ لافتٍ في سيَّالتها وبحيث تبدو السيالة في وضعٍ مُغرٍ للتفتيش..

تسألها دميانة بعد أن أخرجت يدها وكبشت هذه الأشياء:

- وإيه ده؟

- دا عشانِك يا خالتي.

- كده، فيكِ الخير.

وتعدل عن استكمال التفتيش..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما تخرج ريحانة لا تحبُك التربيعة على رأسها الحَبْكة التي تحبُكُها غالبية النسوة، تتركها رِخْوةً من الأمام لتتسرَّب خُصْلَة شَعْر على جبينها غير ضفيرتين من الخلَف والجلباب مُشجَّر ودمُه خفيف، وبغريزة الأنثى تزيح مقدمة التربيعة همسةً أخرى إلى الخلف وهي تمرُق من الباب إلى الشارع.

النسوة أمام العتبات، يعرفنها وتعرفهنَّ، تسعة أشهر بينهن ومن لا تعرفها منهن ترفع كفَّها مُظلِّلةً عينيها لترى بدقَّة وتتعرف إلى هذه القدم الغريبة، والأخريات يسارعن ويقُلْنَ لها، فتهزُّ رأسها:

- آه.. آه..

وتسأل:

- مش هيَّه دي برضه..

- آه هيَّه..

وكلامٌ آخر يَقُلنَهُ لبعضهن البعض: والنبي (وِشَّها) سِمِح، وحلوة صلاة النبي، آه.. وفي حالها..

العجائز منهن تتحرك فيهنَّ غريزة الأمومة، لبعضهنَّ بنات متزوجات في بلادٍ بعيدة – حالُهنَّ حال ريحانة – ويتعشَّمن أن يُعاملنَ معاملةً طيبةً من جاراتهن فالدنيا سَلَفٌ ودَيْن، وإن كانت ردود أفعالهن لا تكون بقدر ما في صدورهن، يكتفين بابتسامةٍ أو انفعالٍ خفيفٍ على الوجه..

وتبادر هي بالتحية:

- عوافِي.

- يعافيكي، اتفضلي.

وقد يسألنها عن الجلباب الذي ترتديه، من أين اشترته؟

- مش من هنا، من البندر.

- والنبي حلو، لايق عليكي.

ويَرْمُقنها من الخلف بعد أن تمضي، لا تسلَم طبعًا من ألسنتهنَّ، من الصغيرات بالذات لا العجائز، ليس عن حقدٍ أو غَيْرَة، لغو، مجرد تعليقات بلا شرٍّ أو رغبةٍ في أذى.

ويتهامسن:

- شايفه كعابها حَمْرَا وبتلمع كده ليه..

- معلوم بتستحمَّى كل يوم ودَعْك دعك بالحجر.

- دي مرات مين فيهم؟

- عدلي.

- عدلي! البتاع المسلوع ده، بقى بذمتك دا يبان عليه.

- يوْضَع سِرُّه في أضعف خلقه، شوفي ياختي شهبور جوزي قَدّ البغل ويتعشَّى من هنا ويتخمد ينام.

- شهبور!

- آه شهبور..

- وأنا اللي بَحسِب..

فتنزعج مَنْ يُوجَّه إليها الكلام، أو ربما تلاحق العين الحَسُودة:

- كِدْب. كدب. واللـه كدب. الاسم أمشير والفعل طوبة.

وتكون ريحانة قد ابتعدت ووصلت إلى دكان طُلبة العجلاتي والمجرم الذي خرب بيتها يترصَّدها، وراءها خطوة بخطوة، في الأول كان كلامه من بعيد لبعيد، يتجاسر الآن.

اشتكت لزوجها فراجع أباه ثم عمَّه ولا فائدة، يقومان بمُراضاته ولا أكثر من ذلك، أو ربما كانا يوبِّخان ابنهما وهو قليل الأدب وأعمته شهوانيَّتُه، فليست لديَّ معلومات وافية عن هذه التفصيلة..

وركب الهمُّ أكتاف عدلي، النار تغلي في جوفه وكُلُّ سؤالٍ يجرُّ وراءه سطرًا من الأسئلة..

مَنْ تحسبُنا يا دون!

هل تحسبنا (هفِيَّة) لهذه الدرجة، أتستطيعُ أن تفعلها مع غيرنا يا خسيس، (الصَّمَرَاني) مثلًا الذي يجلس بقفص طماطم ومشنِّة خُضار بالقرب من أمّ درويش، هل تجرؤ وتتعرض لواحدة من بناته؟ واللـه لكان شرب من دمك ولوقف كل الناس في صفِّه، وقالوا لأبيك وجدِّك ذاته إن كان في قيد الحياة: ابنكم غلطان وعيب اسْتِحُوا على وجوهكم، وحق عرب وقد تسيل الدماء، أما عندنا يتوقف كل هذا!!

وأسئلة في أسئلة كلَّ يومٍ دون إجابات، محاذير في تحسب، فِردة الفعل الحاسمة إن صدرت مني أناً بالذات كلفتها كبيرة..

ولم يَطُل الاختبار..

فذاتَ يومٍ تحرَّش بها المجرم على نحوٍ فاضح، كانت الدنيا قيَّالة والشوارع خالية، نفَرٌ أو نفران على الأكثر أمام أيِّ دُكَّان على أقصى تقدير، عيال فقط تلعب في الأركان، وحاول هو أن يلمسها؛ صاحت بأعلى ما فيها، العيال عندنا أنشط من مُراسلي الفضائيَّات ووكالات الأنباء، رويتر وبي بي سي وسي إن إن؛ طيَّروا الخبر لعدلي في لحظتها ففار الدم في رأسه ونَتَش المغرفة الحديد التي يكيلون بها..

الذي تحرَّش كان لا يزال موجودًا ورجلان يوبِّخانه أحدهما يجذبه بشدة من قَبَّة الجلباب، لم يُرْضهما ما حصل ويودَّان جرَّه إلى العمدة أو ضابط النقطة كي لا يضيع حقَّ ريحانة، غير أن عدلي لم يتريث أو حتى استفهم سَكَعَهُ مرتين بالمغرفة، مرة على رأسه والثانية فوق ضلوعه؛ كسر ضلعين وبالنسبة للرأس قالوا (تَرْبَنَة)..

أسرعوا بالمتحرِّش إلى المستشفى وعدلي إلى الحبس، وامتلأت البلدة بالعساكر والخُفَراء ولولا ضابط النقطة لوقعت كارثة؛ أطلق عيارَيْن في الهواء وصدَّ هو ومَنْ معه عشرين نَفَرًا من أهل هذا الولد جاءوا بالعصـيّ والفؤوس للإنهاء على كُلِّ بيت عدلي.

يريدون جزرهم جزرًا..

تتربَسْت عقولهم على غباوةٍ كاملةِ الأوصاف، فليس الضـرر الذي حاق بهم – فقط – هو أن ابنهم أُصيب وفي المستشفى الآن، فهذه مقدورٌ عليها ما دامت لم تصل إلى حدِّ الموت، بجلسة عُرْفيَّة ودِّيَّة محترمة سوف تُحلُّ، العار الذي سوف يُجلِّل رؤوسهم أن عدلي هو الذي تجرَّأ عليهم!

لم يقولوا هذا صراحةً، الكلام مُخجِلٌ وصعبٌ عليهم النطق به، قالته أعينهم وألسنتهم التي أفلتت بكلماتٍ لا تعبر بذاتها عن معنى، فلا هي موصولة بكلامٍ بعدها أو يسبقها، غير أنها في سياقِ الصدمة التي هم فيها وكل كلمة دلالاتها واضحة لمَن يسمعها، كأن يقولوا مع كآبةٍ على الوجه وإشاحات عنيفة بالإيدي:

- يا صلاة النبي! آهو دا اللي ناقص..

- تعالوا تعالوا بصوا وشوفوا مين دا اللي جاي يتعدى علينا!

- فينك يا جدّ شحاته تعالَ شُوف..

وكأن الذي وقع لو وقع من شخصٍ آخر غير عدلي لكان أهونَ وأخفَّ وطأة!

فمَنْ عدلي هذا..!

ففي ساعةِ الشَّرِّ ووَلْولَة النِّسْوة لم يكُنْ في نظرهم سوى الكافر الغريب الأرزُقي المستباح..

وأغلق فهيم الدُّكَّان بالعارضة الحديد والأقفال وحرَّم على نفسه وعلى ريحانة الخروج، الإسعاف بالنسبة له – وحسبما اعتاد – لبيب النجَّار، ولم يخذله لبيب أو على الأقلِّ حتى هذه اللحظة، أرسل عدَّة أنفار من رهطه لحماية البيت، كما خلع برسوم التُّومَرْجي البالطو الميري والطاقيَّة البيضاء وسافر إلى البَنْدَر ليوكِّل محاميًا يدافع عن عدلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

وتحوَّل بيت عدلي إلى مأتم..

حاله حال المواجع، حتى طيور البيت حركتها قليلة، والديك البلدي لم أسمع له صيحة واحدة وهو (الغلباوي) الذي لا يهدأ، فهل الطير يعرف النكد هو الآخر ويحزن لحزن أصحابه؟

يجوز، فمَن يدري..

وكنت أنا أيامها في إجازة العام الدراسي، ومن ثاني يوم على هذا الحادث طرقتُ الباب على ريحانة، من وراء أبي وأمي طبعًا، فمن يومين وأنا تحت الرقابة المشدَّدة بعد أن جاءنا إخطارٌ من المدرسة الإعدادية بالبلدة بأني لم أنجح في اختبارات الصف الأول، لم أرسُب أيضًا: (مُلحَق)، كعكتان محترمتان في اللغة العربية والحساب، أهم المواد والاختبار فيهما بعد شهر من الآن، كنت أذاكر واللـه لأجتازَ هذا (الملحق) وإن كان عقلي مشوَّشًا بالذي يجري في البلدة.

نهايته.. لم تكن حارة عدلي وفهيم عندما دخلتها هي الحارة التي ألِفْتُها، لا صوت فيها ولا حركة، لا عيِّل يصيح أو يلعب ولا جارة مع جارتها أو بطة أو إوزَّة أفلتت من أحد الأبواب وصاحبتها تلاحقها، هُسّ هُسّ، الرجال في الغيطان كالمعتاد، النسوة هُنَّ الموجودات لكن استحالة أن تستدلَّ عليهنَّ؛ اختبأن، وفي مسألة الاختباء هذه هُنَّ مُحنَّكات ولا يغلبهنَّ أحد، فإما وراء خصاص الشبابيك أو وراء ثقوب وشقوق لا يجيء في بال أحد أن عيونًا تترصَّد منها، أو وراء أسطُر الحطب الناشف التي فوق الأسطُح أو بين أكوام الحِلَّة المرصوصة فوق بعضها البعض، ويرمقن ويُدقِّقن من أعلى في الداخل والخارج من الحارة، يتوقَّعن مصيبة؛ طلقة خرطوش، قتيل، أناس تهجم، أشياء على هذا المنوال.

وأمام بيت عدلي ثلاثة رجال من طرف المعلم لبيب يجلسون بعصيِّهم في أحد الأركان، رمقوني وأنا أطرُق الباب، لم يزعجهم قدومي؛ يعرفونني وليس من ناحيتي أي خطر.

ريحانة هي التي فتحت..

عرفتني من صوتي ومن وراء الباب سألتني: هل معك أحد؟ قلت: لا، فوارَبَت الباب همسةً قليلةً إلى أن مرقتُ منه؛ فلم تكن ثيابها لائقةً لاستقبالِ شخصٍ غريب..

الجلباب الذي ترتديه بنصف كَمّ، لا واللـه بلا أكمام وكما لو أنه قميصٌ للنوم، وقدماها عاريتان ولا غطاء فوق الرأس، لم أُدقِّق فيها مثلما كنتُ أفعل من قبل، عيناي اختشتا فالظرف لا يسمح، وجهها هو الذي رأيتُه بوضوح، كان شاحبًا ومع ذلك لم يفقد جماله، فلا تزال تقاطيعُه بمعمارها الرَّبَّاني تجذب البصر: العينان الواسعتان، الأنف الصغير، الوجنتان ذواتَي الدَّسامة الخفيفة، الشحوب فقط هو الذي كَسَا هذه المُنَمْنمات.

ابنها إبراهيم كان يتلوَّى بين يديها ضَجرًا وعلى وشك البكاء؛ ما حدث أثَّر عليه، لم يعُد يهتمُّ به أحد، وعندما انتبه لوجودي تبسَّم وشبَّ عليَّ، الأمُّ هي الأم في أي موقف، فرغم ما كانت فيه تبسَّمت لتبسُّمه وناولته لي.

أسألُها عن الست دميانة، فتجيب بصوت متأثر:

- اللـه يكون في عونها، لا عادت بتاكُل ولا تشرب..

ثم قالت:

- عايز تشوفها، تعالَى.

وتقدَّمتني إليها نحو الغُرَف الداخلية، لم أطلب رؤيتها فدائمًا ما أعمل ألف حساب لهذه العجوز الصعبة غير أني استجبتُ ومشيتُ خلفها، وكان إبراهيم يُشاغلُني، يحاول وضع إصبعه في عيني وأنا أداعبه والتقط هذه الإصبع بفمي فتعلو ضحكته، وهي تلتفتُ إلينا وترمقني بنظراتٍ مُمتنَّة.

هذه هي المرَّة الأولى التي أصعد فيها على السلالم الداخلية وأجوس في غرف البيت، زياراتي السابقة كانت مقصورة على الحوش فقط، وها هي ريحانة تدخل بي إلى الغرفة التي تخُصُّ الست دميانة.

الضوء ضعيف رغم أننا في عِزِّ النهار، ولما همَّت ريحانة بفتح النافذة صاحت فيها بأن: لا، وقد عرفتُ من ريحانة بعدها أنها مغلقة على الدوام؛ تحتاطُ المسكينة! تخشى من أن أهل الولد المُتحرِّش قد يقفزون منها ويقتلونها هي وكل مَنْ في البيت!

شيئًا فشيئًا أَلِفتُ شُحَّة الضوء وأصبحتُ أرى بوضوح عن أول ما دخلت، ودميانة تطرُق على المرتبة الجالسة عليها، وهذا معناه أن أصعد بجوارها على السرير.

جلستُ حسبما تريد، وكأني أتلقَّتُ عليها، فأين هي!

فالمرأة لم يبقَ منها سوى حنجرتها التي صاحت قبل لحظة بكلمة: لا؛ فقدت نصف وزنها تقريبًا بعد أن قطعت الزاد، صارت بحجم الدُّمَى التي نبتاعُها من الدكاكين لإلهاء الأطفال، وبحيث يمكن للواحد أن يصُرَّ الست دميانة كلها على بعضها في منديل أو يضعها في قرطاسٍ ويحملها بيده.

لا أعرف ما الذي أبدأ به، هي التي تكلَّمت:

- اتبهدلنا في بلدكم يا عبد السلام يابْنِي.

أخطأتْ في نطق اسمي، ليس مُهمًّا، شيء تعوَّدتُ عليه، ولم نكترث لا أنا ولا ريحانة أو لفتنا نظرها.

وتضيف:

- وهو عدلي عمل كده ليه، مش كان بيحاجي على مراته، يابْنِي دا الواد كان مبهدلها في الرايحة والجاية.

ودخلت في نوبة بكاء..

البكاءُ أمرٌ مفهوم، ومقبولٌ أيضًا، ليس غريبًا أن نراه، فكلنا نبكي، لكن أن تبكي امرأةٌ جاوزت التسعين هذا فوق الاحتمال..

لا تعبير لديَّ يوفِّي الإحساس الذي شعرتُ به لحظتها، إحساسٌ صعب، ليس صريحًا ولا مقصورًا على مضمون أو جوهر واحد كالأُمُومَة مثلًا أو الغضب أو حتى اللهفة، إحساس معقَّد، جملة أحاسيس في بعضها البعض، ففيه تآزُر يصل إلى حدِّ الشفقة والغضب لما يُبكيها، وفيه ألَمٌ لِمَا يتألم له الغير، ورثاء أيضًا، بل وكنتُ خزيان من نفسي وهي تبكي، فأنْ تنهار وتتوجَّع امرأةٌ في أقصى شيخوختها أمام فَسْلٍ صغيرٍ مثلي هذا شيءٌ يؤذي النفس، فيومًا ما كانت هذه المرأة عفيَّة وقدماها تدبَّانِ بقوَّة في الأرض وأنا ما أزال في عِلم الغيب، بل وربما أبي ذاته لم يكُنْ له وجود بعد..

وتشعر ريحانة بالحمرة التي اكتسى بها وجهي أو ربما صُفرة وشحوب لا أدري بالضبط، وتأخذني إلى الخارج حيث كان فهيم قد خرج من غرفته وجلس على الدِّكَّة التي بالحوش، رحَّب بي ترحيبة كَسُولَة:

- أهلًا ياسي علي، إحنا كويِّسين وعال العال..

اللسان هو الذي تكلَّم غير أن انفعالات الوجه قالت كلامًا آخر: إنهم في أسوأ حال؛ الدكانُ مغلقٌ وعدلي محبوس والبيتُ لا أحد من أصحابه يستطيع الخروج، والقادمُ لا يعلمُ به سوى اللـه.

ويطرُق البابَ أحدُ رجال المعلم لبيب حاملًا لهم بعض الطلبات، وفهيم يقول لي:

- وآهو زي مانْتَ شايف المعلم لبيب هو اللي حاسِس بينا..

وبتمتمةٍ خافتةٍ ظنَّ أنها لن تصلني: اللي من دِينَك هو اللي بيشيل همَّك..

وظللنا برهةً نرمق بعضنا البعض دون كلام بل والأعيُن تتلاشى بعضها بعضًا كلما التقت، والإحساس الذي وصلني أنه يريدني أن أغادر وأدَعَه في حاله، أنا الآخر ضاق صدري ولم أعُد أتحمَّل البقاء في هذا الجوّ أكثر من ذلك.

أخطأ فهيم..

كان يحسب أن لا أحدَ يشعر به..

ظنُّه ليس صحيحًا، فبعدها بأيامٍ وقفت الحارة كلها على رِجْليَها؛ استعابت انتهاك حُرْمتها وأن يُؤذَى بيتٌ من بيوتها..

حارةٌ صغيرة، سفروتة لا وزنَ لها في عالَم المساكن والشوارع العريضة وتجمُّعات البشر، سطران من بيوتٍ بطوبٍ نيِّئ باشت بعض حروفه من المطر ونَدَى الفجر، وأهلها بُسطاء، لا معهم شهادات من مدارس ولا من أصله دخلوها، الغيط والفأس هما كل رأسمالهم وحياتهم، والفطرة السليمة وما تعلَّموه في الكتاتيب على أيدي مشايخ غير الشيخ سطوحي هو لُبُّ ثقافتهم، قالت هذه الحارة كلمتها ووقفت كتفًا بكتِف مع فهيم، صحيح تأخرت رِدَّةُ فعلها ثلاثة أيام أو أربعة لكنها في النهاية فعلت.

والسبب الشيخ الصفتي..

أحدُ كُبرائها وكان على سفرٍ يؤدي (العُمْرَة)، لم يصل إلَّا بعد الحادث بيومين، أغضبه التهجُّم على بيت عدلي..

أفليس الجارُ أخًا وتجب نُصرته طالما كان مظلومًا؟ ألا يقول له هذا دينُه وشريعتُه..؟

لم يطرح هذا السؤال على نفسه وأخذ يتلكَّأ ويتشاور معها، أو في حساباته مقتضى الحال وأن تزعل منه العائلة الفلانية أو العائلة العلَّانية..

أبدًا.. أبدًا..

قالت له نفسُه في لحظتها، أخطأ عدلي ويُعاقب الآن بما يستحقه، لكن ما جريرة أهل بيته الذين يعيشون الآن كالأسرى الهَلْكَى معدومي الحيلة، ولا

يقدرون أن يخطوا خطوةً واحدةً في الشارع!

وعلى الفور تصـرَّف، قال بحسمٍ لرجالِ المعلم لبيب الذين يقفون بالباب: شكرًا ومع السلامة، نحن جيرانه وأولى به منكم، وكلَّف أولاده برعاية البيت حراسةً ومؤونةً وكل ما يحتاجه أصحابه..

وسرعان ما انضمَّ إليهم فتيةُ الحارة حتى إنَّ بعض المُتحمِّسات من النِّسْوَة كبشنَ أحجارًا يهدِّدن بها مَن يقترب، فالمشاعر كانت موجودة عند الناس من قبل أن يستثيرها الشيخ الصفتي، الإقدام هو ما كان يُعْوِزُ أصحابها، وهذا أحد عيوب بلدتنا: لا تفعل من تلقاء نفسها، لا بُدَّ من رجلٍ يدفعها إلى ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وغادرتُ أنا بيت عدلي راجعًا إلى البيت، لأجد أمي تفترش حصيرةً وتدردش مع امرأةٍ اسمها (عساكر)..

سكتتا أول ما لمحتاني مقبلًا عليهما، وثنت المدعوَّة عساكر أصابعها أسفل شفتها ورمقتني رمقةً غير مريحة، وأنا أقول في نفسي: أهلًا يا عساكر! فلم يكُنْ أيٌّ منَّا يستلطف الآخر.

عساكر هذه ليست غريبة، ابنة خالة أمي وأرملة منذ عشرين سنة..

كلمة أرملة كلمة جليلة في قاموس بلدتنا ولا تلقَى صاحبتها إلا الاحترام والتعاطف، غير أن هذا لا ينطبق على الخالة عساكر فلم تكن محترمة! امرأةٌ فظيعةٌ، لا تُبارَى في الشِّجار وطول اللسان، كما كانت مدخِّنةً شرهة، هل سمع أحدٌ عن امرأةٍ تدخن في الأرياف! الخالة عساكر كانت تُفني علبة كليوباترا سوبر يوميًّا..

هذا غير شيء آخر في سجلَّاتها القديمة كان يجعل الرجال بالذات يحتاطون منها؛ فقد ترمَّلت على ثلاثة رجال، الثلاثة ماتوا في يدها، من ستة إلى تسعة أشهر ويرحل الواحد منهم وهي التي تستمرُّ، وكانت مستورة؛ ميراث أزواجها الثلاثة فضلًا عن ميراثها من أبيها؛ أي أن مَن يتزوجها سوف يتغندر بأموالها، لكن أبدًا لم يتقدم إليها أحد بعد وفاة زوجها الأخير، كما لو أن الناسَ تقول لبعضها البعض: عساكر تغور بفلوسها فمَن هذا الذي يستغني عن عمره! وقد حاول البعض إلهاء (عطية ديل) بها، عرضوها عليه كي يتزوجها إلَّا أنه كَشَّ منها وأشاح بيده:

- عساكر! حَدَّ اللـه!

المَزيَّة الوحيدة في هذه الإنسانة أنها كانت سخيَّة وتُبغدِد نفسها؛ لبس ومصاغ وفسحة، والفسحة في مِصـر وفي حيِّ سيِّدنا الحسين تحديدًا، كل عدَّة أشهر

تصطحب معها خادمتها (أمّ خليل) وتقضيان عشرة أيام هناك، ولَفّ لَفّ من الغورِيَّة للصاغة إلى بيت القاضي، وفي مولِد الحسين تقضـي شهرًا بأكمله، كانت تعرف حيَّ الحسين بالشارع والحارة والزُّقاق.

والآن وبعد الرَّمقة التي رمقتني بها سألتني:

- يعني سقطت يا فالح، مش كُتّ تشد حيلك وتذاكر بدال العَطّ اللي إنت بتعُطّه في الشوارع..

وأمي تصحِّح لها:

- دا حِنَّة ملحق صغير وبكره ينجح ويطلع سنة تانية.

وتزغُدُها بمرفقها كي تكُفَّ عنِّي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

وانفكَّ حبس عدلي، وأخذت القضية مسارها في المحكمة..

إطلاق السّـَراح هذا سبَّب بعض الارتباك لأهله؛ فهو لا يستطيع الرجوع إلى بيته وزوجته شأنه شأن أيّ شخصٍ مُخْلى سبيله، أهل الولد المُتحرِّش في انتظاره، والمُتصوَّر أنهم يتجهَّزون لهً عندما يعود إلى البلدة.

وفي المقابل احتاط الطرف الآخر، فبإيعازٍ من فهيم وعَمّ برسوم الصَّعيديّ النشأة أتت جماعة من أقارب عدلي الذين ما زالوا يعيشون في بلدةٍ بنواحي بني مزار وتصرفوا، خطفوه من أمام باب المركز وهو خارجٌ بعد الإفراج عنه وجروا به إلى هناك، فأهل قِبلِي شُطَّار في هذه المسائل، تكتيك ورصد وتوزيع أدوار وغالبًا ما يجنِّدون لهم عميلًا داخل الأماكن التي يقصدونها، سجن كان أو مركزًا أو محكمة، وهذا الطابور الخامس الذي يعمل لحسابهم عادةً ما يكون (عسكري مِنْعاص)، عامل بوفيه، موظَّفًا في الدَّرْك الأسفل بالسلك الإداري.

وعندنا هنا في البلدة لعب الشيخ الصفتي دورًا يوضع في ميزان حسناته؛ وقف بالمرصاد لمَن يقترب أو حتى يسعل سعلةَ تهديد في وجه فهيم، أما ريحانة وابنها إبراهيم وعليهما الست دميانة كانوا مَحميِّين بالعُرْف قبل الشرع والدين، فمن العيب بل والفضيحة حتى سابع جد المساس بامرأة أو مَنْ هم في عِداد الأطفال.

وفي الوقت ذاته، طرأت أمور أخرى، منها ما يخصُّني ومنها ما يخُصُّ عدلي وفهيم..

فيما يخصني نجحتُ في اختبارات الملحق، نجاح من ذلك الذي يسمُّونه (على الحرُكْرُك)، أما فيما يخصهما فلم يهمَد الشيخ سطوحي، أمسك الربابة وشَعْلل البلدة! لا أعرف ما نوع الخَلَل الذي برأس هذا الإنسان، في اعتقادي أنه في حاجةٍ إلى طبيبٍ ممَّن ليس عندهم أيّ تفاهم ولا يعالجون سوى بالصدمات الكهربائية..

هذا السطوحي مثلي ومثلك يأكل ويشرب ويعطس ويكُحُّ وأحيانًا تخرج من فمه قفشة حلوة، بني آدم عادي وبعد أن تخطَّى السبعين أصبح يتوكَّأ على عصًا وامتلأ وجهه بعشـرين كرمشة غير عينه التي تغَشَّتها (المياه البيضاء) وأفقدتها أربعة أخماس قوة إبصارها، حتى أصبح الناس يقولون فيما بينهم:

- خلاص، انهَدّ..

- آه واللـه، دا عَمَّال يعفّر ويكركر وهو ماشي زَيّ بابور الحَرْت اللي سِيرُه مخروم.

- وهُمَّا سِنِّتِين اللي في حَنَكُه!

وهذا الذي تكلَّم يستدرك:

- ومفيش فايدة، لسَّه برضه بيعضّ بيهم العيال اللي بتغلط في التسميع..

يقولون ويتندَّرون على الحال الذي آلَ إليه، لكن ما إن يظهر الأقباط على الشاشة حتى يتبدَّل هذا الذي يُعفِّر ويُكركِر، تدبُّ فيه الحيوية كما لو أنه يتمتعُ أو يستمدُّ نشاطه من المشاغبة معهم، فمن أسبوع حِمار من حَمِيرهم تبادل الركلات مع أنثى حمار صاحبها رجل مسلم وانكسـرت رِجْلها، وهذا شيءٌ بسيط فالبلدة كثيرًا ما يحدث فيها هذا، (غنَّام) مثلًا يتصلطح تحت أية شجرة ساعة القيلولة فتتسـرب الأغنام التي يرعاها في أرضٍ مزروعة، أو جاموسة تشطَح في حوض برسيم لأحد الجيران وتأكل وتدهَس، عادي، وغالبًا ما ينتهي الأمر في ساعتها بعتابٍ أو تدافُعٍ خفيف بالأيدي أو زعل يوم أو يومين على الأكثر، إلا لو حضـر الشيخ سطوحي هذه الواقعة؛ تصير مشكلة وقد يتطوَّر الأمر إلى ضربة فأس أو يُغطِّس أحدهما رأس الآخر في الرشَّاح على سبيل الإذلال..

لكن الحمد للـه هذه المرَّة، ففي واقعة أنثى الحمار المَجنيّ عليها كان صاحبها حصيفًا ولم يعبأ بتحريض الشيخ الذي فطَّ من الكُتَّاب عندما سمع بالخبر وحشر نفسه:

- وسَّع وسَّع كده يا واد يا زغلول (صاحب أنثى الحمار)، وسيبني مني لهم.

وبغضبٍ يُشيح بعصاه في وجه الطرف الآخر (شفيق ابن جرجس):

- ولما الراجل العدمان الكحيان ده حمارته تعجز يشيل هو بقى السباخ في مقطف على راسه، ولَّا يحط حِمل البرسيم على كتفه وهو راجع من الغيط..

ويعلو صوته مُدعِّمًا الحُجَج التي يسوقها:

- مَنْتَش شايف رجليه اللي عاملة زي رجول المعيز، ولَّا هو كده على بعضه العدمان التَّلفَان من البلهارسيا وأكْل المِشّ.

ويعلو صوتُه:

- يا مفتري! يا ظالم! دا الحمارة بتاعته كانت إيديه ورجليه..

وزغلول مُحبَط من هذه الأوصاف التي يصفه بها، صحيح أنه يدعمه غير أن كلامه ماسخ وأحرجه أمام العشرين نَفَرًا الذين تجمهروا حولهم، شفيق ابن جرجس هو الآخَر يرمق سطوحي بإحباط:

- ماحْنَا اتصافينا يا عمّ الشيخ وقلت لأبو زياد: قُدَّامك حل من اتنين؛ يتاخُد الجحش بتاعي يا ادفع لك خمسين جنيه.

- إيه! إيه! الجحش بتاعك! الوسِخ القمَّاص ده اللي داير يرفس يمين وشمال، يفتح اللـه..

- خلاص الخمسين جنيه.

- خمسين إيه، مِيَّه.

- وهو فيه حمارة بمِيت جنيه يا عمّ الشيخ!

- آه.. حمارة زغلول سعرها كده.

ويتدخَّل زغلول:

- خلاص يا عَمّ الشيخ سطوحي، أنا قلت كلمتي ووافقت على الخمسين.

- إنت وافقت، بس أنا مش موافق!

وزغلول بغضب:

- دِهْدي يا سيدنا، بقولَّك أنا راضي ووافقت خلاص.

- راضي راضي، جاك وَكْسَة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي واقعة عدلي جَلْجَل سيدنا في البلدة، واعتبر الفعلة التي فعلها اعتداءً على أُمَّة محمد صلَّى اللـه عليه وسلَّم!

فَلْسَفها على هذا النحو، واستحثَّ الناس كي يهبُّوا لنجدة إخوتهم أهل الولد المُتحرِّش..

ومن هؤلاء الذين يجمع الناس لمساندتهم!

عائلة ليست بسيطة، وفي بيوتهم ستون نبُّوتًا على الأقل وخمسة عشر فَرْد خرطوش غير مرخَّصة..

وفي مواجهة مَنْ؟ عدلي وفهيم اللذين لو أشَحْتَ في وجههما بخيزرانة لطارا من أمامك، أو انكفآ على الأرض من الخَصَّة..

واقترح الحل، أن يُنْفوا من البلدة، وشَرْعَنها من الناحية الفقهية، فالصحابة – رضوان اللـه عليهم – نفوا أناسًا من المدينة المنوَّرة اتقاءً للفتنة، الفاروق عمر ذاته فعلها مع رجلٍ كان معجبًا بنفسه وافتتنت به النِّسوة، وسيدنا عثمان من غضبه على أبي ذَرٍّ الغفاريّ نفاه في نجعٍ بعيدٍ عن العمران وهو الصحابيّ الجليل[9]*..*

والشيخ سيد الذي أصبح يلازمُه هذه الأيام، يُثنِي على هذه الاستشهادات في الجَمْع الذي يسمع ويقول له بنبرةِ تشجيع:

- حلوة دي يا سيدنا! عفارم عليك..

- بارك اللـه فيك يا شيخ سيد..

وهذا المَدْعوّ سيد من عيِّنة سيدنا، فلا هو شيخٌ ولا يحزنون، مراهق في عالَم المَشْيَخة وكل ثقافته جزء (عَمَّ) وكتابان من الكتب الصفراء..

النهاية.. كان الشيخ سيد هذا قد دخل في خلافٍ منذ مدَّة مع شيخنا سطوحي حولَ تفصيلةٍ في الشرع، سطوحي يُفتي وسيد يُعارِض، ولما طال الجدَل وشعر سطوحي بأن هذا الزَّعرُور يحاول هَزَّ مكانته رفع العصا في وجهه مُهدِّدًا:

- وحقِّ اللـه إن لم ترتدع يا ولد وتتعامل معي تعامُل التلميذ مع الأستاذ لأعبُطنَّك على المَلَأ!

وتدورُ الأيامُ ويتصالحانِ على جثة عدلي، سيِّد يُرائِي وسطوحي يتقبَّل وبعد أن كان لا يناديه إلَّا بكلمة: يا ولد، منحه صَكَّ المَشْيَخَة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

توقفت زعابيب الشيخ سطوحي بعد أن قضت الست دميانة..

فهل التَّمعُّن في فعل الموتِ مُفترَق من مُفترَقات الطُّرُق وتَكِئَة لمسارٍ جديد؟ ربَّما.. إذ أحسستُ بأن هذا الشيخ المُناكِف شعر ببعض الضيق من تجاوزاته السابقة، وإن كنتُ لا أتمادى في حُسن الظنِّ فهذا الضيق أو هذا الكرب الذي أصابه لم يصل إلى حدِّ الشعور بالذنب والرغبة في تغيير الطبع، كآبةُ فقط ألَمَّتْ به، نكَد وسدَّة نِفْس عن الحركة والعَطَّ في الشوارع، وكما لو أنه أخذ عهدًا بينه وبين نفسه على أن يكفَّ عن عدلي وفهيم أو أيَّ أحدٍ من طرفهما.

تبدَّل الشيخ قليلًا، وهذا حالُ أيِّ إنسانٍ فهو ليس حَسنًا ولا سيئًا على الدوام؛ فيه من هذا وذاك، وإن كنَّا لم نعرف على وجه اليقين: هل سيصدُق فيما عزَمَ عليه والمناكفة التي تسري بدمه انصرفت بالفعل، أم أنَّ الأمر مجرد زوبعة في فنجان؟ لم نتأكَّد فقد رحل فهيم عن البلدة ولحق بأخيه في بني مزار بعد أقل من شهر من وفاة الجَدَّة دميانة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظوا فوجدوها ميتةً في فِرَاشها..

رهط الأقباط الذين حضروا هذا الموقف، لبيب وبرسوم ورجل اسمه عانوس يملك عدَّة مناحل للعسل، عرضوا على فهيم أن تُدفن في مقابرهم الموجودة هنا غير أنه اعتذر:

- وعلى إيه آهي تندفِن في بني مزار جنب جدِّي.

وبإحساسٍ داخليّ وكثيرًا ما تصدُق هذه الأحاسيس نكَّس رأسه مضيفًا:

- ومين عارف مش جايز إحنا كمان نرحلوا من هنا ونحصَّلوها.

لم يعلقوا، تبادلوا النظر فقط، والنظرات ليست بريئة غير أنه لم يلاحظ، لديهم حسابات يجهلها وأشياء يُخفونها، والمعلم لبيب مايسترو أيَّة جلسة من جلساتهم يؤكِّد عليه:

- بس العَزَا هيكون هنا.

وفهيم الغافل عن جدته المتوفَّاه، وغير مشغول سوى بحاله وماله والدنيا التي صنعها هنا هو وأخوه عدلي:

- عَزَا إيه يا عم لبيب! ماتخلينا في الغَرْفَة اللي أنا فيها..

وهو بإصرار:

- لا. لازم عزا.

ولضعف فهيم وكسرته في هذه اللحظات سكت، ثم رمقه رمقةَ استعطاف:

- مكلِّمتش الشيخ واعر؟

- رُحت له يابني مرتين تلاتة وبرضه مَخدتِش منه عقَّاد نافع، عامل زَيّ قرموط السمك كل شوية يفُطّ من إيدي.

وعانوس يضع النِّقَاط على الحروف:

- بالعربي كده مش عايز يساعد ويعمل ضدِّيَّات مع عيلة النَّبَّاش (أهل الولد المتحرش).

- والعمدة والشيخ سلامة؟

- انسى انسى، كلهم سَلَتُوا إيديهم.

وفهيم المأزوم:

- يعني زكريا اللي عيني عينك آهو قاعد ومدَلْدِل رجليه، وعدلي اللي كان بيحوش عن مراته يتعمل فيَّه كده؟!

والمعلِّم لبيب يجيبه:

- مَلُوش لزوم الكلام ده، ولا هينفع بحاجة.

- طَبْ ما تقولوا للشيخ للصفتي..

واضحٌ أنهم استقروا على أمرٍ ما ويغلقون أمامه السكك:

- بلاش إحراج، الحارة آخر حدوده وآهو يُشكَر لحدّ كده، خلِّينا الأول في عَزَا الست دميانة.

ويتنقَّل لبيب ببصره بين الجالسين:

- إيه رأيكم في الشيخ عليش، راجل صالح وقرايته حلوة.

وبصوتٍ أخفَت:

- الناس هيَّه اللي بتقول..

ويُتبع ما قال بابتسامةٍ وكلامٍ ما بين الهَزْل والجِدّ:

- وكمان مبياخدش فلوس، يعني هيوفَّر عليك أجرته يا فهيم..

وفهيم يتمتم بضَجَر: هيوفَّر!

ويحدق فيه بنظرةٍ عاتبة، فخراب بيته هو الأولى بالكلام وليس هذا الهزل والاستظراف، والمعلم لبيب المَعنيّ بنفسه ومصالحه فقط وليس بما في رأس فهيم، يدَّعي أنه فهم نظرة فهيم على نحوٍ آخر ويُجيبه:

- ما تستغربش يا فهيم سِلْو بلدنا كده، مسلم ولَّا قبطي لازم عَزَا ولازم قرآن، الناس اللي بتقعد في العَزَا كلهم مسلمين.

- يا عم لبيب متاخدنيش لبعيد، مافيش فيَّه حيل للعَزَا.

وعانوس وبرسوم يؤكِّدان له صواب رأي المعلم لبيب، فأشاح بيأس:

- خلاص خلاص اللي في خاطركم اعملوه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أُقيمت ليلةُ العزاء بمدخل الحارة..

فرشوا الدِّكَك وفي الصَّدارة منها دِكَّة للمُقرئ والميكرُوفون وبطَّارية الشحن؛ فلم تكن الكهرباء قد دخلت بعدُ إلى قريتنا، ودِكَّة فاخرة جاء بها المعلم لبيب بنفسه لحضرة العمدة إذا جاء للعزاء.

ووُرِبَ باب البيت لتمُرَّ النسوة من فتحة بعيدة عن أعين الرجال، وأمِّي من بينهنَّ، ظلَّت جالسةً حتى فرغ العزاء وأطفئُوا الكلوبَّات؛ فانصـرفت تتسنَّد على خادمتنا نعمات، وهذه التَّرْثارَة تقول لها وهما في طريق العودة:

- عزا الست دميانة بسم اللـه ما شاء اللـه كان متروس ستَّات.

- آه والنبي يا بنتي، اللـه يرحمها ويجعل الجنَّة من نصيبها.

ونعمات بدهشة:

- جنة! وهُمَّا هيدخلوا الجنة معانا..؟!

وأمي تلكزُها بقبضة يدها:

- أُمَّال هتدخليها إنتي لوحدك، بس بس يا بِتّ بلاش خيبة.

وعرفنا من أمي بعدها أن ريحانة ظلت جالسةً إلى جوارها طوال العزاء؛ فقد كانت مرتبكة، لا خبرةَ لديها ناهيك عن الهَمّ الذي هي فيه، ولاحظت النسوة ذلك فهدَّأن منها وحلفن عليها بألَّا تتحرك من مطرحها وقُمْن هنَّ بكل شيء، وأولهن الست اعتماد زوجة الشيخ الصفتي؛ إذ نصَّبت من نفسها راعيةً لتلك الليلة وطفقت تتابع حركة القهوة على الصواني وتُشـرف على تقديمها لهذه أو تلك حسب المقامات، قدَّمنها لأمي وزوجات الأعيان في فناجين من الصيني، صحيح مشطوفة الحوافّ والرسوم التي عليها مطموسة لكن يُشكرن، هذا هو المتاح، أما باقي المُعزِّيات فتناولنها في أكواب زجاجية صغيرة، ومنهن مَنْ عافتها؛ ليس لها في شرب القهوة، لا تعرف سوى الشاي.

وكانت الست اعتماد تنبِّه إذا علا صوت المعزِّيات، تسمح لهن فقط بالهَمْهمَة والوَدْودَة وكل ما هو من قَبيل الصغائر واللَّمَم وتردع إذا ما تجاوزن ذلك، فريحانة خام ولا قدرة لها على السيطرة على نسوة المآتم؛ رهيبات!

إبراهيم كان نائمًا في حِجْر أمه ريحانة أغلب الوقت، وعندما استيقظ وفوجئ بالنسوة بملابسهن السُّود شرع في البكاء والركل بقدميه، لم يهدأ إلَّا بعد أن تعرَّف على أمي، ومدَّت هي يدها وأخذته وهو يعبثُ في زرار قميصها المَلَس بحثًا عن الثدي وهي تعاتبه بلُطف:

- مش وقته، عيب..

تشعر إحدى الأمهات الجالسات، وبإرشادٍ من ريحانة تلتقطه وتقوم بإرضاعه بغرفة في الجوار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفي الخارج أقبل العمدة ومعه جماعة من الأعيان..

واللافت أن المعلم لبيب لم يستطع مُدَاراة فرحته بقدومه، ثلاث أو أربع ابتسامات لاحت على وجهه غير ضحكة خفيفة رغم أننا في عزاء، فتنشيط العلاقة بالعمدة هو الحدث الأهم لمصالحه ووضعه بين الأقباط، أما عزاء الست دميانة فيأتي في مرتبةٍ متأخرة.

تقدَّم العمدة، ومن نفسه وقبل أن يرشده أحد توجَّه إلى الدِّكَّة التي بانتظاره، تعرفه ويعرفها؛ الوحيدة التي عليها مساند بغطاءٍ من القطيفة يُتَّكئ عليها بذراعه أو يرتاح بظهره، وجلس إلى جواره المعلم لبيب برهةً لا بأس بها، طقسٌ من طقوس الترحيب ولغرضٍ في نفسه؛ إذ همس في أُذُن العمدة مال عليه وقال وأسهب في الشـرحً والرجل يومئ برأسه بأنه يعي ويفهم ويُقدِّر، ثم رَبَّت على كتف لبيب تربيتةَ تجاوُبٍ وطمأنة، وأغلب الناس أبصارهم مشدودة نحوهما وغفلوا عن المقرئ الذي يتلو، ولا أحد منهم إلَّا وفسَّرها على

أن لبيبًا يسعى للحصول على وعدٍ منه بالضغط على عائلة النَّبَّاش كي لا يتعرضوا لعدلي إذا ما فكَّر في الرجوع، وأنهم – أي الأقباط – في المقابل على استعدادٍ لجبر الخاطر ودفع التعويض المناسب.

سَرَى هذا الفهم بينهم، وعلى مدار الدِّكَك المصفوفة كنا نرى مَن يومئ برأسه بهذا المعنى لآخر يجلس هناك فوق دكة بعيدة، وهذا الآخر يبادله الإيماءة بأنه فعلًا كذلك..

تكرَّر هذا الأمر عدة مرات خاصةً ممَّن يجلسون متجاورين، غير أن الأيام وبكل أسف أثبتت أنه فهمٌ مغلوط، فالأمر وما فيه أن المعلم لبيب له في ذمَّة الرجل الشرس (عطية ديل) مائة جنيه ثمن الساقية التي دقَّها له في أرضه، ولم يدفع له السيد/ ديل سوى العربون عشرين جنيهًا، وعندما تسلَّم الساقية سأله المتبقي من الثمن فرجع ديل بمنكبيه إلى ظهر الكنبة التي كان يجلس عليها، وقال له بكُلِّ أريحية:

- مش قبضت العربون، وآدي يا سيدي فُوقِيه تلاتين جنيه، مبسوط!

ولبيب بحسرةِ مَنْ وقع في فَخّ:

- والباقي؟

- باقي إيه! خلِّي عندك نظر..

هذا ما همس به المعلم لبيب في أُذُن العمدة، يريد استردادَ حقِّه أو أي جزء منه، لا أكثر ولا أقل، أما ما ظنَّه الناس فلم يعُد ضمن اهتماماته، فمن أول أمس أغلق صفحة عدلي وفهيم نهائيًّا، كفَّ عن مساعدتهم بعد أن وصل إليه أن عائلة النَّبَّاش تتوعَّده هو وورشته وأكل عيشه وحياته إذا استلزم الأمر.

أليس الكبير والذي يساعد فليشرب هو الآخر، وهذا هو المنطق الساري في بعض مناطق الريف عند الانتقام، يصطادون الرأس الكبير ويعفون عن الأصغر حتى ولو هو الذي ارتكب الفعل، يريدون رأس الثور لا ذيله!

مجرد تهديد هدَّدوا به لبيبًا ولا أظنهم قادرين على تنفيذه، طلقة نار في الهواء القصد منها الإرهاب لا إحداث الإصابات، لكن مع المعلم لبيب اختلف الأمر؛ فالرجل رِعْدِيد، انفكَّت صواميله..

وهنا وقفة أو نقطة نظام لكي لا أكون معتديًا على الملكية الفكرية للغير، فلست أنا الذي أوَّلتُ التهديد الذي وصل للمعلم لبيب على أنه تهديد فارغ، العَمُّ سبعاوي أبو خليل، ليس عمًّا الجد سبعاوي فقد جاوز الثمانين، الرجل

الكهين الأريب ملك الجلوس على المصاطب هو مَن فسَّرها على هذا النحو وأفتى بذلك، وأنا التقطتُها منه.

ليس لبيبٌ وحده الذي استوعب وخاف، عانوس أيضًا، وصله تهديدٌ هو الآخر بأنهم وبالمبيدات سوف يرشون النحل الذي يقتنيه بمناحله ويبيدونه نهائيًّا، غير أنهم لم يتجاسروا مع الشيخ الصفتي رغم أنه يساعد، حَذَروا منه، عائلة وأصهار وعِصيّ وقادر على إحداث إصابات هو الآخر، ناهيك عن النقطة الأهم، سوف تنقلب البلدة عليهم، أما مع الأقباط فبكل أسف سوف تُسأسئ البلدة وتزعل فقط ثم تسكت!

وتشاور الأقباط فيما بينهم، كلهم مسالمون ولا يريدون الأذى لهم ولعيالهم ومصالحهم، فوَّضوا أمرهم للـه وبعقيدة المغلوب ضحَّوْا بعدلي وفهيم، والباب الذي يأتي منه الريح إغلاقه أفضل حلّ: فليلحق فهيم بأخيه في بني مزار غير أنهم لم يقولوها له صراحةً، خَجِلُوا من أنفسهم قبل أن يخجلوا منه وتركوه يفهمها بنفسه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولم يقصِّـر السيد/ ديل، جاء يعزِّي هو الآخر وبرفقته ثلاثة من ميليشياته، هذه خامس أو سادس مرة في حياتي أراه فيها، فالرجل غامض ونادرًا ما يمشي في الشوارع، كان بالنسبة إلينا نحن الصبية كالقطِّ الأسود، الخُطّ، سبع الليل، هذه الأسماء المخيفة، والمفاجأة قُدُوم الشيخ سطوحي، أول ما لمحه برسوم التُّمَرْجي رجع خطوتين إلى الوراء وأشار بإصبعه خطفًا إلى شيخ الخُفرَاء ليتخذ احتياطاته.. لم يفعل الشيخ أي شيء يُؤخَذ عليه، استمع إلى تلاوتين ثم انصـرف، لا أعرف إلى متى سيظلُّ شيخُنا على هذا السكون والانكماش؛ لم يَعُد مثيرًا للانتباه أو جديرًا بالمتابعة كما كان من قبل، وهذا شيءٌ مُرْبكٌ ويدعو للضيق أن توقف إحدى الشخصيات الفاعلة نشاطاتها وفجأةً على هذا النحو..

وعَمَّ الصمتُ عندما هَمَّ الشيخ عليش بتلاوة الرُّبع الأخير..

لم يقرأ سواه إذ جاء متأخرًا لظرفٍ ألمَّ به، وكانوا هم وعلى عَجَل استقدموا مُقرئًا آخر اسمه الشيخ شاكوش، عفوًا اسمه الحقيقي الشيخ عبد السلام وأهل البلدة من الفَكِهين هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم حتى شاع ولا يُعرَف إلَّا به..

قراءة الشيخ شاكوش وبكُلِّ أسفٍ لم تكن على المستوى، لا ذاب في المعنى ولا انفطر أو حتى تعامل مع الآيات برفق، وإذا تحذلق وتلاعب بنبراته كانت الطامَّة، يبدو صوتُه كصوتِ ماكينة تبرطم وتشحط من عُطْلٍ أصابها.

وبدأ الشيخ عليش..

وناهيك عن حلاوة الصوت والخشوع حاول أن يُحدث أثرًا، يعرف أن مَن دَعَوْه للتلاوة في محنةٍ فأراد أن يساعد، قرأ لهم سورة مريم، وبتبتُّلٍ قال من القرآن الكريم: «فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا»[10].

ورغم أن المُعزِّين - وبحكم ثقافتهم – لا يعرفون ولا يحفظون شيئًا قَدْرَ حفظهم لقَصَص الأنبياء، إلَّا أن الذوبان فيما يُتلَى عليهم وضعهم موضع مَن لا يعرف، ومن الانفعال الذي على وجوههم تحسب أنهم يستقبلون جديدًا وهو ليس بجديد..

وران الصمت، صمتٌ فاعل، مُتماهٍ وليس مُخدِّر، وكُلُّه حركة غير أنها لا تُرى، فمجراها النَّفس من الداخل..

والشيخ عليش بنبراته الحَنُونة ينطق بكلام اللـه: «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللـه آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا... وَالسَّلَامُ عَلِيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا»[11].

وليس من انفعالٍ يسـري سوى التأثر وليس لدى البعض غير عتاب الداخل، وكان فهيم ساعتَها يحمل صينية القهوة ويمضـي بها بين الدِّكَك المتراصَّة وأكثر الجالسين يرمقونه برضا؛ أحد أحفاد النبيّ الكريم الذي عظَّمه القرآن..

والمعلِّم لبيب من الإجهاد والسنّ المتقدمة يتَّكئُ بظهره إلى أحد جدران الحارة، أشار له العمدة بأن يُقبِل عليه، أجلسه بجواره وطفقا يتهامسان، لا أعرف في ماذا وإن كنا قد قلنا لبعضنا البعض: أخيرًا تحرَّك قلب العمدة، فالسماحة بدت على وجهه وراحةٌ تغمر العَمَّ لبيب، وحسب التأويل الذي بأذهاننا وقتَها، قلنا أيضًا: الحمد للـه ثم الحمد للـه فيبدو أن الرجل لن يُقصِّر وعدلي أيامٌ ويرجع، وعرفنا بعدها بأسابيع بأن العمدة فعل المستحيل ولكن في سكَّة مختلفة، استردَّ للمعلم لبيب عشرين جنيهًا أخرى والمدعوّ ديل يُحاجِجُه بضيق:

- دا يحمد ربنا على كده! عليَّا الحرام من بيتي ما أحُطّ ملِّيم تاني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مجرد عزاء زمنه ساعات جرى فيه كل هذا..

ولحظاتٌ حُلْوة عادت فيها النفوس إلى خِلْقتها الأولى دون عكارة، وأقصد بها المشاعر التي انتابت المُعزِّين حيال فهيم أثناء تلاوة سورة مريم بلسان الشيخ عليش، لا المداولات التي جرت بين العمدة ولبيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

23

توتُّر في قلق في دنيا جديدة أرمقها بعُبوُس..

فمن باكر سوف أرحلُ وهذه آخرُ ليلةٍ لي في البلدة، هذا الأمرُ كان صعبًا عليَّ وما دمتُ أتأسَّى على الصَّبيِّ الذي كُنْتُه في هذا اليوم فلا مانع من شيءٍ من المبالغة، والقول بأن صدمتي وقتها كانت أشبه بصدمة السمكة التي اشتبكت السنَّارة بخياشيمها ويصعدون بها من الماء!

وأنا السبب فيما تصوَّرتُه عقابًا آنذاك..

ملاحق وكعك في الشهادات كي أعبُرَ من سنةٍ إلى الأخرى إلى أن قرَّر أبي أن أستكمل تعليمي في مصر وأنا في هذه السِّنِّ المُبكِّرة، فلو بقيتُ في البلدة – حسبما قال – لن أنفع في تعليم ولا مدارس وآخرتي أن أكون أحدَ الحُوَاة أو مَن يفتحون (المَنْدَل)، أو ممَّن يلعبون بأصابعهم خلف الشاشات البدائيَّة في الريف القديم ويحركون الدُّمَى والأراجوزات وينطقون بأصواتها، فطالما خوَّفني أبي بهذه الوظائف الهَزْليَّة إن لم أنتبه لنفسي، رغم أني لم أكُنْ فاشلًا إلى هذه الدرجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظلَّت أُمِّي ليلة أمس ترتب لي ملابسـي في الحقائب ومعها الأشياء التي أحرص على الاحتفاظ بها؛ صور مقصوصة من المجلَّات لعبد الناصر ونهرو وعمر الشريف وفاتن حمامة، وصورة من أحد الأفلام القديمة للفنان عبد الفتاح القصري والسيدة حرمه وهما يدشِّنان سفينتهما (نورماندي 2)..

وأمي بابتسامتها الوَدُودَة تسألني:

- وهَحُطّ لك معاهم كمان صورة من صوري، إيه رأيك؟

عيناي هما اللتان تجيبان وأقتربُ منها حتى أكادَ ألتصقُ بها..

- وكمان صورة لأبوك..

كان واقفًا فخجلتُ منه..

- آه.. طبعًا طبعًا.

وتركتُها تستكمل وضع مُتعلَّقاتي وتتحدَّث معه:

- أنا معاك في اللي إنت عملته، بس لو كان حَدّ تاني غير عساكر.

- على إيدك! مَكَنْشِ فيه قُدَّامنا غيرها، وكلها كام شهر وندبَّرُوا واحدة غيرها.

وبإصبع السبَّابة يُذكِّرها:

- وبعدين أنا شاورتِك..

وهي بأسى:

- آه.. شاورتني..

وتُتمتِم:

- يا عيني عليك يابْنِي، مَنْتَش حِمْلها..

- ويعني هو اللي سهل، الاتنين لتَّة واحدة.

- متقولش كده، ابننا متربِّي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ويأتي الصباح ومعه العربة التي ستُقلُّني إلى مصـر، ثم الخالة عساكر تتبختر قادمةً من بيتها في فستان تُحفَة، أسود في أخضـر في خطوط بلون البَنَفْسَج عند فتحة الصدر وأول الأكمام وشيء فوق الرأس كالعمامة التي يرتديها رجال الدين، وفوق كلِّ هذا حذاء بكعب تتعثَّر فيه وكتلة مساحيق على شفتيها ووجنتيها تثير الغضب؛ بدَت ككائنٍ قادمٍ من بلاد واق الواق! وعدَّة كلاب كانت ممدَّدة على الأرض في أمان اللـه – كلاب الشيخ شبانة الذي يقطُن بجوارنا – طفقت ترمُقُها بحَذرٍ من أول ما هلَّت من بعيد، وواحد منها لم يتحمَّل، كلب غشيم لا يفهم في الملابس سوى الجلابيب البلدية والهدوم المعتادة لنسوة بلدتنا، تحدَّاها هذا المُغفَّل وشرع في النُّباح والتحرُّش بها..

ها هي على بُعد خطوات وتصل ونحن ننتظرها أمام البيت، أنا وأمي وأبي، وعَمّ مرجان السائق هو الآخر في حالة شغف ويتابعها من نافذة السيَّارة، اختشى وأدخل رأسَهُ بسرعةٍ عندما شعر بأن أبي لا يعجبُه ما يفعل..

بالنسبة إليَّ لم أتمالك نفسـي، ابتسمتُ، وأمي تخشي عليَّ منها لو لاحظَتْ وتلكزني خفيفًا بمرفقها، وكما لو أن أبي يقول في نفسه: بسم اللـه الرحمن الرحيم! انزعج من الهيئة التي رآها عليها، أكيد انزعج! وإلَّا لماذا تغير وجهه بعض الشيء وهذه البسملَة، فلم يَرَها من قبل إلَّا بالقميص المَلَس والطرحة السوداء المحترمة، وكانت مقبولة، أقصدُ من حيث الشكل وليس الجوهر طبعًا، أما هكذا فالعياذ باللـه..

أتت ووراءها خادمتُها أمَّ خليل، وللعِلْم الاثنتانِ ألعَنُ من بعضهما البعض، وأبي بعد أن تجاوز ما طرأ عليه انتحى بها على انفرادٍ وطفقا يتهامسان وأنا عيناي عليهما..

ويتهامسان، طبعًا عليَّ، منكما للـه..

وحانت لحظة الوداع فارتميتُ في حضن أُمِّي، تشبَّثتُ بها كالأطفال وأبي يفصل بيننا، لم يفصل بخشونةٍ كما كان يفعل معي أحيانًا، برفقٍ وعدَّة تَرْبيتات على صدري ومنكبي وكانت عيناه تحملان مشاعر أكثر دفئًا ممَّا كان يعبِّر عنه بلسانه وهذه التربيتات، ومع ذلك لم أكُنْ سهلًا في يده واقتصرت على مجردِ التصافُحِ باليدِ وتقطيبةٍ للحاجبين إلَّا أنه جذبني إليه وطوَّقني بذراعيه، طوَّقني تطويقةَ أبٍ وأنا مازلتُ مُتخشِّبًا، لم أكتشِفْ أني أخطأتُ بهذا إلَّا بعدها، وكان العقاب أن فقدتُ شهيَّتي للطعام عدَّة أيَّام..

ويدير عَمّ مرجان مُحرِّك السيَّارة فأشرع في الدخول بسرعة، وعساكر تنقرُ على ظهري بإصبعها:

- مش لمَّا أركب أنا الأول، من أوّلها كده، وبعدين إنت تقعد جنب السوَّاق وأنا وأم خليل هنقعدوا وَرَا.

أسررتُها في نفسي وللإحاطة لم أكُنْ عديم الذوق والكَيَاسَة مثلما تصوَّرت هذه الإنسانة؛ كنتُ مضطربًا وأودُّ الإفلاتَ من هذا الموقف وألَّا ترى أمي بالذات الدَّمْع الذي كاد ينسالُ من عيني وأحاول كتمانَهُ..

ويسألُها عمّ مرجان بعد أن استوت هي وأُمُّ خليل على الأريكة الخلفية:

- نتّكِل على اللـه يا حاجَّة عساكر..

كدتُ أنسحبُ من لساني وأقولُ له: ليس معنا حُجَّاجٌ في السيَّارة فهي لا حاجَّة ولا يحزنون، غيرَ أنِّي آثرتُ الصمت احترامًا لأبي فلم نتحرَّك بعدُ من أمام البيت..

ومع بداية تحرُّكنا تُحدِّثني من الخلف:

- وتعمل حسابك إن من هنا ورايح كل حاجَة تاخُد مني الإِذْن قبلَها، حتى لو كُتّ داخِل الحمَّام!

بطرف إصبعي أنغزُ عَمَّ مرجان في ركبته وكأنه المقصود بالكلام وليس أنا، فيسألُها:

- حمام إيه يا ست هانم!

ففهمَتْ أني ألاعبُها، السائق فهم هو الآخر والتزم الصمتَ إلى أن وصلنا، وتناديني بالاسم قبل أن تقول:

- والواجب! الواجب بالخصوص تعمله يوم بيوم.

لم أردّ.

أما أنا وأم خليل فلا نزال في حالة هدنة، لم يتحرَّش أحدٌ منَّا بالآخَر حتى الآن، تَصلطَحَتْ برأسها إلى الوراء ونامت، وهذه هي عادتُها كلَّما ركبت شيئًا له دركسيون وإطارات، وطفق رأسي يعمل بأقصى طاقتهِ لوضعِ الخُطَط اللازمة لحمايةِ نفسي من (رَيَّا وسكينة) هاتين اللتين معي في السَّيَّارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أين نحنُ..؟

قُبالة دُكَّان زكريا، وخطفًا ألمحُ حُزْمةَ نسوةٍ ابتعنَ وعلى وشك الانصراف، لم يبقَ أمامه سوى نعناعة..

نعناعة! اللـه! اللـه!

ولِمَ لا، خسـرتَ فيها مائةً وخمسين جنيهًا وأنت تاجر وابنُ سوق وسوف تستردُّ حقَّك طبعًا ولو بالتقسيط، فمن الآن وحتى إشعارٍ آخَر سوف تقف أمامك نعناعة وهمسٌ ومداعباتٌ مثلما تشاءان، ومَن يستطيع فتح فمَه بكلمة! ألم تكُنْ زوجتك ومن أهل بيتك، وكلُّه مسجَّل في أوراق رسميَّة وعلى يدِ مأذون!

آه يا أولاد الأفاعي!

تبًّا لك يا شيخ واعر! تَحبُكُ الحبكةَ تُخرِج فيها الجمل من سَمِّ الخِيَاط، وعند عدلي ترجع إلى الوراء وتقول: اعذروني فأنا مريض وعندي إسهال! العمدة أيضًا وأبي والمعلِّم لبيب وعانوس وغيره وغيره، كُلُّهم أصيبوا بالإسهال! ما لهذه الدنيا، أيمكن أن تستقيم بهؤلاء الذين يعانون من الإسهال!

ومن الأريكة الخلفيَّة تناولني الخالة عساكر معلومةً جديدة:

- واعمل حسابك يا أنا يا خالتك أم خليل، واحدة منَّا هَتودِّيك المدرسة كل يوم.

أبتسم..

ولو كنتُ على حُرِّيتي لقهقهتُ عاليًا، مثلما كان يفعل الفنَّان (عبد السلام النابلسـي) في الأفلام القديمة ساخرًا ممَّن يستهين بقدراته، وأم خليل التي

استيقظت بسببِ مَطَبٍّ لَكَمَ السيارة من أسفل:

- خايفين عليك يابني أحسن تتوه ولَّا حدّ يضحك عليك.

- يضحك عليَّا، قوي قوي..

وفي نَفْسِـي أقول: يبدو أنكما تجهلان قدراتي! نصلُ أولًا وأخرجُ أنا من هذه الصدمة وسوف تريان، ويا أنا يا أنتما يا بنات آوَى، ولسوف نرى مَن منَّا سوف يَعَضُّ أذُن الآخر..

ونقترب من الموقف حيث على اليسار مباشرةً دُكَّان عدلي وفهيم، الدكان مغلق بالكامل، وعلى الدَّرَج الذي أمامه تناثرت البقايا؛ المَعْرَقَةُ الحديد، كَفَّ الميزان، لوحٌ من ألواح الطَّاوِلَة التي كُنَّا نقف أمامها، غيرُ ثلاثِ قُفَفٍ من قُفَفِ الإبريمي فارغاتٍ ومُلقاةٍ غير بعيد وصغار الشارع يعبثون بها، اليافطة التي تحمل اسميهما هي التي لا تزال باقية وفي انتظار أن تُنزَع عند قدوم مالك جديد..

نادرًا ما تدمعُ عيناي..

أدمعتُ هذا اليوم، ليس على فراق البلدة فكلُّها أشهُر وأعود..

على الدُكَّان..

قطعةٌ من زمني السعيد تـموت أمام عينيَّ..

كنتُ أُحبُّه، هو الآخَر كان يحبني..

وصار أصحاب هذا الدكان مجرد حكاية تُحكَى على المصاطب، وفي قلوبٍ قليلةٍ أنا أحدُها..

لم أَرَ عدلي ولا فهيم ولا ريحانة ثانيةً، أتذكَّرُهم فقط بين الحين والحين، وحتى بعد أن هَرِمتُ لا زالوا في ضيافتي ولهم مساكن في القلب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدر للمؤلف

أولاً: الأعمال الأدبية:

• لقمة العيش: مجموعة قصصية/طبعة دار النسر الذهبي سنة 1994، طبعة دار النيل سنة 2005، طبعة وكالة سفنكس سنة 2011/وقد فازت قصتان من هذه المجموعة بالجائزة الأولى لنادي القصة عامي 1997، 1998.

• قلوب منهكة/المسلم اليهودي: رواية/ طبعة دار النيل سنة 2004، طبعة وكالة سفنكس سنة 2009، خمس طبعات لدار العين للنشر أعوام 2020، 2021، 2022.

وقد نالت هذه الرواية جائزة الدولة التشجيعية سنة 2005، كما صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2013، بعنوان:

(Diary of a Jewish Muslim).

وقد نَفَدت هذه الطبعة وأعيد نشرها في طبعة جديدة سنة 2018، ضمن سلسلة (Hoopoe) الصادرة من الجامعة الأمريكية.

كذلك ترجمت الرواية إلى اللغة الألمانية، ونشرتها دار فيلتن (WELTEN) سنة 2017، وعنونت باسم

(ErschöpfteHerzen-Der Muslimische Jude).

وترجمت أيضًا إلى اللغة الأرمينية سنة 2021، بتنسيق بين الجامعة الأمريكية بالقاهرة ودار نشر ANTARES بإرمينيا.

• أيام الشتات: رواية/ طبعة وكالة سفنكس سنة 2008، خمس طبعات لدار العين للنشر أعوام 2020، 2021، 2022.

وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2012، بعنوان:

(Days in the Diaspora).

• أحلام العودة: رواية/طبعة وكالة سفنكس سنة 2012، خمس طبعات لدار العين للنشر أعوام 2020، 2021، 2022.

وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة 2017، بعنوان:

(Menorahs and Minarets).

• حارة المليجي: رواية/ طبعة وكالة سفنكس سنة 2014، وطبعة للهيئة العامة للكتاب سنة 2021.

• أيام لا تنسى: رواية/ طبعة دار العين للنشر 2018، وقد حازت على الجائزة الأولى لاتحاد الكتاب في الرواية سنة 2021.

• قهوة حبشي: رواية/طبعتان لدار العين للنشر عامي 2019، 2022.

• بورسعيد: رواية/ طبعتان لدار العين للنشر عامي 2021، 2022.

ثانيًا: المؤلفات القانونية:

• السلطة في الفكرين الإسلامي والماركسي: دار النهضة العربية، سنة 1986. وقد حصل هذا المؤلَّف على جائزة أفضل بحث قُدم لكلية الحقوق/ جامعة القاهرة/ عام 1987.

• النظم السياسية والقانون الدستورى: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

• القانون الإداري: مطبوعات جامعية، سنة 2001.

• المدخل للعلوم القانونية: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

• الإدارة العامة: مطبوعات جامعية، سنة 2002.

• الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والاتجار غير المشروع فى المواد المخدرة: مطبوعات جامعية، سنة 1995.

ثالثًا: ما كتب عن المؤلف:

• اللذة والمتعة/قرأة في سرد كمال رُحيِّم، دراسة نقدية للدكتور محمد علي سلامة: دار العين، سنة 2019.

• تقنيات السرد الروائي عند كمال رُحيِّم (روايات أيام الشتات وأحلام العودة والمليجي نموذجًا): رسالة ماچيستير بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأقصى/فلسطين/سنة 2016.

• جَدَلُ السَّرْدِ وَأَزْمَةُ الهُوِيَّة: قِرَاءَاتٌ نَقْدِيَّةٌ في ثُلَاثِيَّةِ اليهود لكَمَال رُحَيِّم: دراسة نقدية تقديم الدكتور سامي سليمان أحمد، وتحرير الدكتور تامر فايز: دار العين، سنة 2022.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
إهداءٌ خاص
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23

صدر للمؤلف
المؤلف
الفهرس..

Notes

[←1]
البنك كلمة لا تزال تُستخدم في الريف إلى الآن؛ للدلالة على الحاجز الخشبي الذي يفصل بين الباعة والـمُشترِين في البقالات وسائر الدكاكين.

[←2]
الفارة آلة بدائية من آلات النجارة ذات سِنّ معدني مصفَّح، وتُستخدم لكشط أو إزالة أي بروز أو نتوءات في ألواح الخشب.

[←3]

السيجة لعبة تشغل أهل الريف منذ الأزل خاصةً كبار السن منهم، وهي أشبه بلعبة الطاولة أو الشطرنج حيث يتبارز اثنان وحولهما مَن يريد التشجيع أو التفرُّج، وتؤدَّى فوق الأرض مباشرةً، أمام الدواوير والجوامع والمنحنيات أو في الغيطان أحيانًا؛ إذ توضع خطوطٌ وتُرسم خانات على التراب واللعب بالحصى، فأحد اللاعبين بحصى لونها أبيض مثلًا واللاعب الآخر بلون مختلف للتمييز ويسمونها «الكلاب»، وكل لاعب يتنقل بحصاته أو «كلبته» وهذا هو الاسم الشائع، والمهزوم ينسحب ليحلَّ محلَّه لاعب جديد.

[4←]
مشروب لاذع المذاق مستخرج من نبات الكينا، ويُقال أنه فاتحٌ للشهيَّة ومُقوٍّ للعضلات و.. و..، وكان منتشرًا بمصر في خمسينيات وستينيات وإلى منتصف سبعينيات القرن الماضي، ويُباع في الصيدليات والبقالات ونجده أحيانًا في ثلاجات الشوارع الملحقة بأكشاك الجرائد والسجائر، مصر كلها كانت تتناول هذا المشروب إلى أن اختفى فجأة، وقيل أن وزارة الصحة هي التي منعت استيراده من الخارج.

سجائر شعبيَّة كانت منتشرة في ذلك الزمن. [←5]

[←6]
التعريفة عُملة نقدية قديمة مقدارها خمسة مِلِّيمات، وقد ظلت معنا إلى منتصف سبعينيات القرن الماضي، وكانت لها قوة شرائيَّة إذ يمكنك أن تبتاعَ بها سيجارة أو سيجارتين من النوع الرديء أو ساندوتش فول!

[←7]

كلمة أو وظيفة خفير الطلبات لا ذِكْر ولا وجود لها في لوائح وأضابير الشرطة، ليست رسميَّة، إنما جرى العُرف على أن يُخصَّص أحد الخفراء لخدمة ضابط النقطة، ما يحتاجه من السوق، نظافة بيته، توصيل أولاده إلى المدرسة، أيَّة مشاوير تخصُّه؛ أي تقريبًا كل ما يُعهد به للخدم، أظنُّ أن هذه الوظيفة انقرضت الآن..

[←8] اسمها هكذا، وهي عبارة عن حلوى مُسكَّرة الواحدة منها بحجم رأس الدبوس وكانت تُباع بالحفنة، انقرضت الآن.

[←9]
وقد أخطأ الشيخُ سطوحي، فالقياسُ هنا لا مَحلَّ له، أولًا لبُعد المسافة الزمنية عما يُقاس عليه والتي تتبدَّل تبعًا لها الظروف والأوضاع ومن ثَمَّ الأحكام الفقهيَّة، وثانيًا لاختلاف جنس الفعل الـمُقاس على الأفعال الـمُقاس عليها.

[←10] سورة مريم، الآية: 127.

[11←] سورة مريم، الآية: 33.